رواية

العتمة

سر بيت العجوز

محمد الناصر

الطبعة الرابعة
نوفا بلس للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

العتمة..
سرّ بيت العجوز
محمد الناصر

عن الكتاب..

حسين..

...

ذلك الفتى اليافع الذي تضعه أحداث القصة وجها لوجه مع أشياء مريبة لم يتصور يومأنه سيكون في مواجهتها خاصة بعد الحالة الغريبة التي أصابت شقيقه والتي راح يبحث عن الأسباب التي أدت إلى ذلك وبالتحديد في أحد البيوت القريبة من بيته

المنزل الذي يسكنه عجوز غريب الأطوار ليكتشف بعدها العديد من المفاجآت التي لم تكن في الحسبان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء

أمي وزوجتي وأبنائي (ليلى - منى - عبد الله)

لكم كل الحب والتقدير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

يعد هذا الكتاب هو أول إصداراتي الأدبية، الذي تمت إعادة طباعته مرة أخرى ليرى النور من جديد وبشكل مختلف، وتم أخذ القصص الأولى من كتابي «غسق» الذي أخذنا منه قصة «شجرة التوت»، بينما أخذنا من الإصدار الثاني «قزح» قصتي الأولى أيضا.

وتتكون القصتان من أجزاء مترابطة مع بعضها البعض، لكنهما صدرتا في كتابين مختلفين، ومن خلال هذا الإصدار تم دمجهما في كتاب واحد، بعد تنقيحه وتعديل بعض الأخطاء، وتمت تسميته بـ«العتمة» حتى نعطي روحا جديدة للكتاب.

وأتمنى من كل قلبي أن ينال إعجابكم، خاصة القراء الجدد الذين لم يحالفهم الحظ في اقتناء الإصدارات التي ذكرتها، بينما كل التحية والتقدير لكل ما اقتنى كتابيّ «غسق» و «قزح».

هناك في العتمة يختبئ شيءٌ ما..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شجرة التوت

ما سأرويه لكم ليس ضربا من الخيال، إنما هو حقيقة حدثت بكامل تفاصيلها الغريبة، وتسلسل أحداثها المريب، أتمنى أن ينصبُّ كامل تركيزكم على الأسطر المقبلة، لأن ما سأقصه لن يصدقه عقل، ولا يستسيغه المنطق.. لكنه حدث!

وأعلم جيدا أنه سيدهشكم ما ستقرأون، لأن أحداث قصتي أقرب الى قصص الخيال، إلا أن الواقع نسجها، وجعلني أغوص في شباكها وأحرك أحداثها.

في بداية ديسمبر، وقبل أن يلفظ الصيف أنفاسه، تحركت خيوط قصتي، عندما فوجئنا بوجود أصغر إخوتي أحمد ممددا في الساحة الكبيرة من منزلنا.. انطلقنا مسرعين به إلى المستشفى القريب من المنزل، كونه في حالة إغماء شديدة.

وتبين لنا عند رؤيته للوهلة الأولى عدم وجود أي إصابات في جسمه، وبعد فحص دقيق وشامل في المستشفى، أكد لنا الطبيب أن أحمد لا يعاني من أي شيء عضوي، ومن الممكن أن تكون هناك صدمة نفسية جعلته يتعرض لحالة الإغماء هذه، وما لاحظناه بعد استفاقته هو أنه يعاني من أمر غريب جدا وحالة فريدة من نوعها.

كونه لا يعرف أي شخص منا، ونبدو له كأننا مجهولون، ويعاني أيضا من صعوبة النطق، بالإضافة إلى حالة الشرود الذهني التي ألَمَّت به والنظرات الغريبة التي يتفحص بها وجوه الموجودين! عيناه كانتا شاردتين يملؤهما الاحمرار، وملامح وجهه جامدة, من دون انفعالات، بالإضافة إلى نومه بطريقة غريبة، فاتحا عينيه وكأنه جثة هامدة ولا يتحدث بأي شيء، ولولا أنفاسه التي تؤكد لنا أنه على قيد الحياة لقلنا إنه من تعداد الأموات.

والدي لم يترك أي مستشفى أو طبيب إلا وذهب اليه من أجل فحص حالة أخي، وإيجاد حل سريع ومناسب لها، المحيّر أن كل الأطباء أكدوا له أن أحمد مرّ بصدمة نفسية جعلته بهذه الحالة، ويحتاج إلى وقت من أجل عودته الى طبيعته من جديد.

يبدو أن صدمتي بشقيقي أنستني التعريف عن نفسي..

حسين.. الشقيق الأكبر لأحمد، الذي سيحمل على عاتقه أحداث هذه الحكاية، تأثرت كثيرا بوضع أخي، ولِمَا وصل إليه من حالة سيئة.. العديد من المرات أتألم له، وأنظر إليه والألم بداخلي يكاد يقتلني.

كيف يحدث ذلك، أحمد الصغير الشقي أحد أهم أسباب المشاكل في البيت والمقالب والضحك يحدث له هذا؟!

إنه أمر يشعرك دائما بألم شديد يعتصر قلبك، وبالتحديد عندما تفتقد شخصا كان حيويا في منزلك، وفجأه تشعر بأن هناك شيئا ناقصا اعتدت عليه بشكل يومي، ويتبدل الحال بلمح البصر وتراه يعاني أمرا غريبا لم يستطع أحد تفسيره، ماذا تفعل وقتها، هل أقف مكتوف اليدين؟

مستحيل أن أقف هكذا.. لا أستطيع رؤية أحمد بهذا الوضع.. لا بد من إيجاد حل.

مرّ شهر ولم أرَ أي تحسن في حالة أخي، والوضع كما هو عليه، مليء بالجمود الكلي، وحالة الشرود، حتى أنه إذا أراد التحرك تكتشف أنه لا يستطيع أن يركز في خطواته، ويسير وكأنه ينظر إلى شيء أمامه، ويحتاج إلى معين يساعده على تثبيتها.

قرأت عددا من الكتب التي تتعلق بالأمراض النفسية، وتصفحت الكثير من المواقع، لعلي أجد دواءً أو طريقة تساعدني على عودة أخي إلى طبيعته، لكن لا يوجد أي تشابه لحالته سوى في القليل من المواقع، التي أكدت كلام الطبيب النفسي، أنه مرّ بصدمة جعلته بهذا الوضع، وبالطبع هذه الحالات نادرا ما يتعرض لها من هم في عمره، الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة.

مرض أخي يمزقني كل ليلة، كوني لا أستطيع تخفيف آلامه، وهذا الأمر كان دافعا قويا، كوني عزمت على إيجاد خيط أصل من خلاله إلى الحقيقة، نعم لا بد أن أتعقب الأحداث التي سبقت حادثة أحمد، وكيف وصل به الحال الى ما هو عليه الآن، لا بد من تقصّي الحقائق خطوة بخطوة، لأنه من الممكن أن أصل في نهاية الأمر إلى طريق يساعدني على الوصول الى حل.

بدأت في البحث عن العلاج، وكانت أولى الخطوات التي قمت بها، سؤال أصدقائه الذين دائما ما يلعب معهم، وبالتحديد المقربين منه، وهما سالم وخالد، اللذان أكدا لي أنه قبل اختفاء أحمد بساعات كانت جميع الأمور طبيعية، وكعادتنا دائما ما نلهو بدراجاتنا الهوائية التي ننطلق بها في شوارع المنطقة، وكعادتنا أيضا نعود الى منزلنا قبل الغروب، وهو الأمر الذي نفعله في كل يوم.

وقال لي صديقه خالد، الذي كان أكثر اهتماما:

- فوجئنا عندما زار والدك بيتنا في تلك الليلة وقام بسؤالي عن أحمد، وأكدت له أنه كان في طريقه إلى المنزل، وبعد بحث استمر لأكثر من ثلاث ساعات،

تصادفت إحدى السيدات بأحمد ملقى في الساحة الخلفية من المنزل.. انطلقنا جميعنا إلى هناك ووجدناه في هذا الوضع، لا توجد به أي إصابة.

سألت خالد: هل أحمد يذهب إلى هذه الساحة كثيرا؟

أجابني بثقة:

- نعم إننا دائما ما نتردد عليها من خلال دراجاتنا الهوائية، لأنها كما ترى ساحة ترابية كبيرة محاطة بالعديد من البيوت، ولا يمكن للسيارات أن تدخل إليها، ما يجعله مكانا آمنا للهو واللعب.

وثم أكمل بصوت منخفض:

- نحن لا نذهب إلى هذه الساحة إلا أوقات المساء قبل الغروب أو في الظهيرة، أما في الليل فمن الصعب أن نذهب لأنها تكون مظلمة.

ثم بعد ذلك صمت وشعرت بارتباكه..

نظرت إلى عينيه وشعرت بأنه يريد أن يتكلم، لكنه متردد، قلت له بهدوء:

- خالد هل هناك شيء آخر تريد أن تقوله؟

رد ولا يزال به بعض من الارتباك:

- نعم.. لكن.. لكن.. مممممم.

قلت له بقليل من الحدة:

- أرجوك ساعدني كل معلومة مهمة، وستُعيننا على إرجاع صديقك أحمد إلى حالته الطبيعية.

قال خالد مترددا:

- في الساحة الخلفية هناك حديقة صغيرة.

عن أي حديقة تتكلم.. بعد مقاطعته حديثه.

بعدها طلب مني الاقتراب وهمس بأذني..

- تعدني بأنك لن تخبر أحداً؟

هززت رأسي مؤكدا له ذلك..

قال بقلق شديد:

- هناك حديقة لأحد البيوت التي تطل على هذه الساحة في الجانب الآخر من المنزل، وصاحب البيت يملك حديقة تعج بالأشجار، والتي أغلبها من شجر

السدر، فضلا عن الأشجار الأخرى، بالإضافة إلى شجرة توت صغيرة، تطل أغصانها من فوق سور المنزل.

وأكمل حديثه بحذر شديد:

- ونحن ما بين كل فترة وأخرى نتسلق سور هذا المنزل من أجل قطف ثمار التوت، إلا أننا نكون حذرين من صاحب البيت.

صمت قليلا.. ثم عاد وقال:

- صاحب هذا المنزل رجل عجوز غريب الأطوار، فدائما ما يطاردنا عندما يكتشف وجودنا ونحن قريبون من منزله.

قاطعته وقلت:

- هل أخي يتردد على البيت كثيرا؟

أجابني قائلا:

- نعم نتردد عليه كثيرا ودائما يقوم صاحب البيت بمطاردتنا، وكنا نخاف منه كثيرا، كون ملامح وجهه غريبة وحركته مريبة، وتوحي لك بأنه ليس من البشر!

قلت له هل لك أن تدلني على البيت؟

قال: بالطبع.. وسأذهب معك.

انطلقنا نحو المنزل، وفور وصولنا إلى هناك كان البيت من جهته الخلفية مليئا بالأشجار وأكثرها من السدر الذي يزرع في الكويت بشكل كبير، ويثمر عن «الكنار» وهي فاكهة مشهورة في البلاد.

ولا يوجد أي شيء في المنزل يثير الريبة، لكن بعد السؤال عنه تبين لي أن من يسكنه عجوزان منذ أكثر من عشر سنوات، وليست لهما علاقة بأحد، وقليلا ما يُشاهد الرجل العجوز يقف عند باب الحديقة، أي بمعنى آخر هما منطويان كثيرا في بيتهما، لكن في المساء يصبح أشبه ببيت الأشباح، وتظن أنه غير مسكون من البشر وشبه مهجور، وجميع أنواره الداخلية والخارجية مغلقة، ويغلفه السواد من كل جانب.

جمعت كل هذه المعلومات من الجيران وسكان الشارع عن المنزل وربط جميع الأحداث التي وقعت قبل حادثة أحمد، لكن كنت أصل دائما إلى حلقة مفقوده، تبعثر جميع استنتاجاتي، ورغم هذا كله كان عندي أمل كبير بأنني سوف أصل في النهاية الى هذه الحلقة المفقودة التي ستفك جميع الرموز المعقدة.

حتى جاء ذلك اليوم الذي أعطانا بصيص الأمل في فك أحد هذه الرموز، بعدما جلبت أمي سلة فاكهة منوعة في صالة المنزل، وأغلب أفراد العائلة كانوا موجودين ومن بينهم أحمد، وبمجرد أن وضعت أختى السلة على الطاولة، وقام الجميع بتناول الفاكهة، حتى بدأ أحمد بالصراخ من دون توقف، وهو يؤشر بإصبعه ناحية السلة!

يصرخ ويصرخ.. الكل تفاجأ، لأن هذه المرة الأولى التي نرى فيها انفعالات على وجه أحمد منذ حادثته.

نظر أبي إلى السلة وتوقع أن تكون هي السبب الذي جعله ينفعل بهذه الطريقة، فقام بإخفائها.

هنا هدأ أحمد قليلا وعاد كل شيء الى طبيعته، من بينها حالة الجمود على وجهه والشرود الذهني، يتفحص بدقة شديدة سقف المنزل.

قرر أبي أن يذهب إلى الطبيب الذي يتابع حالة أحمد وإخباره بكل ما حدث، بينما أنا جلست أفكر مليا في هذا الموقف، وأطرح على نفسي العديد من الأسئلة، منها:

لماذا أحمد انفعل بعد ما رأى سلة الفواكه؟

ما المخيف بالسلة؟

أسئلة عديدة، وكان هناك شعور داخلي يؤكد لي أن سلة الفواكه هي الحلقة المفقودة ما بين حالة أحمد.

الاستنتاجات التي خرجت بها من خلال متابعتي لحالته في هذه اللحظة أن السلة كانت ممتلئة بالفواكه المتنوعة، البرتقال والتفاح والموز.. و.. و.. والتوت.. نعم التوت هو الرابط المشترك، فبمجرد أن مدت أمي يدها إلى ثمرة التوت الموجودة في السلة وكانت بطريقها لإعطائها لأحمد صرخ وهاج.. نعم ثمرة التوت هي السبب فهمت الآن.

انطلقت بعدها مسرعا وأنا متوجه إلى منزل ذلك العجوز، وهذه المرة الأولى التي أرى منزله من واجهته الأمامية، وقبل اقترابي من باب المنزل، نظرت من خلال فتحة صغيرة تطل على الواجهة الأمامية للبيت، وفوجئت بالفوضى العارمة والكبيرة التي تعج في المكان، الغبار عالق في كل الزوايا، حتى يتخيل لك أن عملية التنظيم شبه معدومة في هذا البيت، وتجد هناك بقايا أشجار قديمة جافة، وأحواضا صغيرة للزراعة غاب عنها الماء منذ مئات السنين، وبقايا أخشاب انتشرت في المكان كله، كل ذلك أثار استغرابي، لكن استنتاجي ستعرفونه بعد قليل.

طرقت باب المنزل بعد أن بحثت عن جرس أو جهاز إرسال «انتركم» فلم أجد، فقمت بالطرق بقوة على الباب الحديدي الذي في واجهة المنزل، وانتظرت قليلا، وكانت جميع الأجواء بالنسبة لي مرعبة إلى حد ما، والذي زادها خوفا العجوز الذي فتح الباب، وكان منظر وجهه أشبه بحالة «الزومبي»، وهم ما يطلق عليهم مصطلح «الموتى السائرون»، فالبياض الكثير الذي يغطي وجهه، مع ازرقاق بسيط وشحوب في الوجه واحمرار العينين، ناهيك عن طريقة حركته الغريبة، حتى أنني كنت أرى عروق شراايينه بلونها القريب من الأخضر تكاد تنفجر أمامي، أمور كثيرة أثارت رعبي، حتى ابتعدت وشعرت بأنني لا أكلم آدميا.

نظر إلي بجمود وحالة من الدهشة قبل أن يقول:

- نعم، ماذا تريد؟.. بلهجة شديدة وعصبية.

صمتُّ قليلا بعد أن تجرعت الصدمة التي كانت أمامي والمناظر الغريبة التي شاهدتها، وقبل أن أتدارك الموقف، كوني مرتبكا قليلا، بالإضافة إلى أنني ليست لدي أي حجة أو سبب معين لوجودي لأقوله له، حتى جاءني ذلك الإلهام والحجة الواهية..

وقلت مستدركا الموقف:

- آسف على الإزعاج سيدي، فقط أردت أن أستسفر: هل تريد بيع منزلك؟

أعلم جيدا أن حجتي سخيفة، لكن لم يعطني عقلي سواها؟

نظر باستغراب، ثم تقدم نحو الباب الخارجي للمنزل وقال:

- هل ترى أي إعلان أو لوحة خارج المنزل تدل على عرضي إياه للبيع؟ هل ترى شيئا من هذا القبيل؟

بينما هو يتقدم، وقعت عيناي على منزله من الداخل، نعم فوضى عارمة تعج بجميع أركانه، كما هي الحال خارجه، ورائحة نتنة امتلأ بها أنفي..

ثم التفتُّ إليه بسرعة.. مع ابتسامة مصطنعة وقلت:

- لا لا يا سيدي، لكن أنا أبحث في الوقت الحالي عن منزل وأعجبني موقع بيتك..

اسمع.. قالها وهو يرفع سبابته ويضعها بين عينيّ:

- منزلي ليس للبيع، وأتمنى ألا أراك مرة أخرى هنا، قالها بوقاحة شديدة، وأغلق الباب بعدها في وجهي من دون أي كلمة أخرى!

خرجت من منزله وأنا أفكر جيدا ومتأكد في الوقت نفسه أن هذا البيت وراء حالة أخي، لكن ما السر وكيف أصل إليه؟ هنا تقع المشكلة!

الأمر من دون أي نقاش يحتاج إلى مغامرة، ولا بد من رسم خطة كي أخترق فيها أسوار البيت وأعرف شفراته السرية.. فحسب المعلومات التي لدي أن هذا المنزل عليه العديد من علامات الاستفهام، لا بد أن أغوص في أعماقه وأكشف أسراره.

وبعد تفكير طويل اكتشفت أنه لا بد من المغامرة ودخول بيته من دون أن يعلم.. كان الأمر بالنسبة لي مغامرة من الممكن أن تهدم مستقبلي بالكامل لو اكتشفت الشرطة أمري، لأنهم سيعتبرونني لصاً، حتى لو أنني قلت لهم الحكاية كاملة فلن يصدقني أحد... مممممم لا أعرف ماذا أفعل؟

بصراحة، فكرت بالتراجع, لكن عندما أتذكر حالة أخي ووضعه السيئ تعود لي العزيمة من جديد، وأقدم على تنفيذ المغامرة التي ستكون سلاحا ذا حدين.

نعم، قررت أن أقوم بهذه المغامرة الصعبة واقتحام منزل العجوز، ورسمت خطة صغيرة على حدود الإمكانات المتاحة لدي، مع أنني أعلم جيدا أن هناك العديد من الثغرات الساذجة الموجودة فيها، لكن لا يوجد أي حل آخر، وحددت الموعد والوقت الذي سأقوم به بتنفيذ مغامرتي، واشتريت بعض الأمور التي سأحتاج اليها في مثل هذه الظروف، مثل مصباح ضوئي صغير ومفك وسكين، لا أعلم لماذا أخذت السكين معي، حيث أعرف جيدا أنني لن أستعملها، كوني لست من هواة حمل السكاكين، يبدو هي الفطرة التي دائما ما تحثك على فعل الشيء، لا تعرف ما أسبابها، ولاسيما أنني دائما أرى في الأفلام الأجنبية التي أشاهدها يأخذون هذه الأشياء معهم لمثل هذه المهمات.

مرّ الوقت ثقيلا وأنا أنتظر ساعة التنفيذ، وطوال هذه الفترة أعصابي تكاد تنفجر وعقلي تأكله الوساوس من كل ناحية، وتحاوطني تلك الأفكار، وتحاصرني العديد من الأسئلة.

ماذا لو اكتشفوا أمري؟

ماذا لو كان هذا البيت بعيدا كل البعد عن كل ما أعتقد؟

هل أتراجع؟ لا أعلم.. كان الأمر صعبا جدا، لكنني لن أتراجع.. لن أتراجع فأنا قررت، وسأضحي بكل شيء من أجل أخي.

دقت ساعة الصفر «ساعة التنفيذ»، وانطلقت مسرعا إلى ذلك المنزل، وتسللت بهدوء إلى الساحة الخلفية لمنزلنا، وهو الطريق الذي من الممكن أن يخفي هويتي لكل من يراني أو يصادفني، وأنا أرتدي ذلك المعطف الثقيل كثير الجيوب، ومُلثم بغطاء الرأس «الغترة»، لا أخفي عليكم، وقتها كنت

أرتجف بشدة، رغم أن الجو لم يكن بتلك البرودة الكبيرة، وأتخيل العديد من السيناريوهات المرعبة، لكنني أطرد كل هذه الأفكار وأصب كل تفكيري في أخي وفي ذلك البيت لإتمام تلك المهمة، حتى وصلت إلى سور ذلك البيت، ووقفت أنظر له بهدوء، حتى أنني اندمجت كليا لأجد بعض التشققات في بعض جوانبه، ووضعت قدميّ، وساعدتني أيضا بعض الأغصان المتدلية، التي تمسكت بأحدها ووثبت لأجد نفسي فوق السور، ومن ثم قفزت بهدوء داخل البيت، لأتفاجأ بتلك الفوضى العارمة التي تعمُّ المكان.

لم أحدد نوعية تلك الأشياء المبعثرة التي تدوس عليها قدماي، وكنت أسير بهدوء حتى لا أصدر أي جلبة من الممكن أن تنبه من يكون في البيت، ثم أخرجت مصباحي الصغير الذي أضاء لي الطريق.

الخوف كاد يشل حركتي, وقلبي يكاد يسقط من داخل صدري أمامي، مازلت أرتجف، فأنا لست متمرسا بمثل هذه الأمور.

وصلت إلى أحد الأبواب التي من الممكن أن تدخلني الى البيت، وأعتقد أنه باب المطبخ، وكان بابا زجاجياً، نظرت من خلف الزجاج لعلي أرى شيئا بالداخل، الظلام كان سيد الموقف مددت يدي الى مقبض الباب، حاولت فتحه، لكنه كان مغلقا، أخرجت ذلك المفك الصغير الذي أحضرته معي، ووضعته على حافة الباب وقمت بالضغط والدفع في الوقت نفسه: «تك تك تك» (صوت الحديد)، وفجأة فتح الباب, لم أتوقع أن الأمر سيكون بهذه السهولة.

دخلت بهدوء، وكما توقعت أنه باب المطبخ، ولم أتفاجأ هذه المرة، لأن الفوضى نفسها موجودة، الطناجر المتناثرة على الفرن، الأواني التي امتلأت بها مغسلة الأطباق، بقايا طعام على الطاولة، ورائحة كريهة تنتشر بالمكان.

أكملت مسيري بهدوء وبخطوات بطيئة، أرصد كل شيء أراه أمامي، والهدوء يحيط بكل أرجاء المكان، حتى دخلت إلى البيت.. أنا الآن في الطابق الأرضي، أسير في ممر صغير، على جانبيه غرفتان على اليمين واليسار، دخلت الغرفة التي على اليمين، رصدت ما بداخلها، كانت خاوية تماما، وكذلك كل الغرف الأخرى الموجودة، حتى الصالة التي امتلأت بالعديد من الأثاث المغطى بقطعة بيضاء، وكأنه لم يستعمل، وكانت هناك صورة معلقة على الحائط لرجل وامرأة بجانبهما ولد، وكانت الصورة جميلة وملامح الوجوه هادئة.

الطابق الأرضي بالنسبة لي كان خاويا تماما ولا يوجد أي شيء يذكر، أحسست بتعب لكنه ليس بالإجهاد العضلي، إنما إجهاد الخوف، فالمرحلة الأولى بالنسبة لي انتهت دون أي مشاكل، ولا بد من إكمال المسيرة، فهناك

طابق ثانٍ علي صعوده، الأمر كان متعبا جدا إرهاق نفسي، يجب إكمال السير.

صعدت بهدوء وعلى أطراف أصابعي..

كان الوضع بهذا الدور أهدأ، خاليا من الفوضى، الغبار كعادته في هذا البيت كان يكتسي المكان، وهناك العديد من الغرف الموجودة التي أريد أن أرصدها غرفة غرفة.. دخلت إلى الغرفة الأولى, فتحت الباب بهدوء حتى تفاجأت بوجود شخصين نائمين على السرير! تراجعت ووقفت بجانب الباب من الخارج وأنا أتنفس بشدة، تمالكت شجاعتي من جديد ورجعت مرة أخرى أنظر، وأنا أمد طرف رأسي إلى الداخل لأجدهما نائمين بطريقة غريبة، مستلقيين على ظهريهما، وعيونهما مفتوحة، وينظران إلى سقف المنزل، مثل الموتى، ولا يشعران بأي شيء حولهما، حتى أنني تجرأت قليلا ووضعت ضوء المصباح على وجهيهما.. نعم إنه العجوز الذي قابلته يوم أمس، وأعتقد أن المرأة التي بجانبه هي زوجته، الأمر المحيّر أنه لا استجابة منهما، إنهما موتى، حتى جاءتني تلك الشجاعة بالدخول إلى الغرفة والاقتراب من العجوزين.

اقتربت منهما والعرق يتصبب من أعلى رأسي، علما بأن الجو كان باردا، ونظرت إليهما، لا مشاعر، ووجهان مرعبان شاحبان، وعيون جاحظة تنظر إلى سقف الغرفة. المنظر كان مرعبا ولا أعلم من أين أتت لي الشجاعة التي جعلتني أقترب منهما هكذا!

لحظة.. لحظة.. هذا الشحوب والجمود نفسه الذي على وجه أخي، تذكرت أحمد عندما يكون نائما بهذه الطريقة, بالفعل استنتاجي صحيح، هذا البيت هو السبب، لكن أريد أن أجد الحلقة المفقودة والعلاج لحالة أخي.

بدأت بالبحث في جميع أرجاء غرفة العجوزين، داخل الدواليب الصغيرة والكبيرة، تحت السرير، لا شيء يذكر.

جلست على الأرض بعد أن شعرت بالتعب والإرهاق النفسي، ونظرت إلى العجوزين، وأنا على يقين بأن السر موجود داخل صدر هذا العجوز: هل أيقظه؟ لا لا، إذا أيقظته سيُكشف أمري وأدمر مستقبلي، الأمر لا يحتاج الى هذا الانفعال الشديد، لا بد من حل هذا الأمر بتروٍ وحكمة، من الممكن أن تكون الغرف الأخرى تخفي أسرارا.

واتجهت نحو الغرف الأخرى، الوضع نفسه يتكرر بجميعها.. الهدوء والغبار لا شيء جديدا، سوى هذه الغرفة، فهي متميزة عن جميع الغرف الأخرى، وأعتقد أنها كانت لولد صغير، لأن صوره كانت موجودة على الجدران، ولد لم

يتجاوز السابعة من عمره، والغرفة نظيفة ولا يوجد بها أي غبار، وكأنها نظفت منذ ساعات. هذا ما جعلني متأملا أن أجد شيئا ما بها، وبينما أنا أنظر إلى أرجائها وأتفحص جدرانها، واضعا ضوء مصباحي الصغير على الصور الموجودة، أجد أن هناك سعادة كبيرة كانت موجودة على وجوه من في الصورة، حتى قطع صوت حبل تأملاتي لتلك الصور، سمعت صوتا يصدر من الدولاب، كأنه شيء يحاول الخروج من داخله. تحفزت ساعتها جميع حواسي، اقتربت من الدولاب بهدوء، وأنا أضع نور المصباح عليه، والصوت يزداد، لا أخفي عليكم، شعرت بخوف شديد، لأنني لأول مرة أجد شيئا تعج فيه الحياة بهذا البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحظة الخوف

قلة الحيلة وتضارب التفكير الذي يصاحبك في مثل هذه المواقف، تسمع صوتا في نفسك يطلب منك التراجع والعودة من حيث أتيت، لا لا لن أتراجع، لا بد من فتح الدولاب.. ثوان حتى اتخذت القرار، لا بد من فتح الدولاب، فأنا لم أتحمل جميع هذه المشقة وأتجرع الكم الكبير من هذا الخوف حتى أصل إلى خيط يجرني إلى الحقيقة وفي اللحظة الأخيرة أتراجع.. لا بد من التقدم وفتح هذا الدولاب، شعور يقول لي إنه سيساعدني على معرفة الحقيقة، انطلقت بخطوات متثاقلة نحو الدولاب، وضعت يدي بهدوء ناحية المفتاح الصغير، ثم أدرته بكل هدوء وأنا متخوف جدا عن ماهية الشيء الذي بداخله، وفجأة فتحته بسرعة حتى تدلى جسم بشري متكور من داخل الدولاب، وقام يتدحرج داخل الغرفة حتى توقف فجأة وكان لحظتها يعطيني ظهره. التفت ذلك الجسم البشري نحوي، حتى صدمت وتراجعت وسقطت على الأرض من هول الصدمة إنها... إنها امرأة شعرها متجعد وعيناها حمراوان، والشحوب على وجنتيها، كانت تتكلم بهدوء وتقول: أرجوك أرجوك ساعدني، نظرت إليها من جديد بعد أن وضعت ضوء المصباح على وجهها، كان الأمر بالنسبة لي أشبه بالحلم، للأسف إنها الحقيقة المُرة التي أواجهها، نظرت لها بعد أن جمعت بعض الشجاعة التي تبقت معي، قلت لها:

- من أنت؟ وماذا تفعلين بهذا المكان؟

أجابت بصوت ثقيل متحشرج:

- أرجوك... ساعدني وفك قيدي.

تقدمت نحوها والخوف والتردد ينتاباني، ما الحيلة بمثل هذه المواقف، لا بد من التقدم، مررت ضوء المصباح على جسمها، اكتشفت أنها مقيدة اليدين والقدمين، نظرت إلى قدميها وقمت بفكها مع يديها وابتعدت بهدوء، لكن اكتشفت أنها لا تستطيع النهوض.

نظرت لي وقالت من جديد:

- ساعدني بالنهوض، أنا لا أملك القدرة على الوقوف.

وهذا معناه أنني سألتصق بها وأنا حتى الآن لا أعرف من تكون.

الأمر أصبح بالنسبة لي كابوسا واقعيا متمثلا أمامي، لا مجال للتردد لا خيار أمامي سوى الامتثال الى طلبها.

مددت يدي حتى وقفت تلك المرأة، كانت رائحتها كريهة، الخوف أفقدني إحساسي كله.

وضعت يدها على كتفي واستندت بي وقامت بالمشي خارج الغرفة، كنت أجرها جراً، لكن فجأة أحسست بوخزة شديدة على خاصرتي، كأن أحدهم قد غرس إبرة في جسمي، صرخت من شدتها، التفت ناحية المرأة ووجدت أنها تبتسم بطريقة ماكرة لا أعلم من أين أتت لها القوة، ضغطت على جسمي وكادت عظامي تتحطم بعد أن قاومتها بشدة لتقذفني بقوة ناحية الحائط، لا أعلم أي قوة تمتلك ومن أين أتت بها، وفقدت توازني بعد ارتطامي بالحائط.

وفجأة أحسست بأن هناك موجة هواء قد ملأت الغرفة، لأن الملابس التي ترتديها كانت تتحرك بقوة وشعرها يتطاير، والأدهى من ذلك أنها تستطيع أن تطير وكأن قوى خفية تحركها!

ضحكت بصوت ماكر ملأ الغرفة، وقالت:

أنقذتني.. أنقذتني، لقد بطل مفعول السحر.

حتى هذه اللحظة لم أفهم شيئا ماذا تقول هذه المجنونة؟ قلت لها:

- عن أي سحر تتكلمين؟

ابتسمت بعد أن اقتربت مني، وقالت:

أنقذتني من ذلك العجوز الوقح..

وأردفت حديثها قائلة:

- لا بد أن تموت، إبطال السحر بالكامل مرهون بموتك، وحريتي الآن مرهونة بحياتك حتى أستطيع العودة إلى بيتي وأهلي وعشيرتي.

نظرت إليها وأنا أكاد أن يغمى علي من شدة الآلام التي حلت بي بسبب ارتطامي بالحائط، قلت لها بألم:

- لماذا تفعلين بي ذلك؟

قالت بمكر شديد:

تريد أن تعرف لماذا فعلت بك هذا؟ لماذا أريد موتك؟ إنها قصة طويلة، وعلى ما أعتقد هذا طلبك الأخير سألبيه لك، حتى تموت وأنت مرتاح!

سأحكي لك القصة كاملة، هل رأيت العجوز النائم في الداخل؟ إنه السبب الرئيسي لما أنا فيه، وأنت به أيضا..

طارت نحوي بكل خفة وقامت بسحبي من ملابسي إلى غرفة العجوزين بعد أن جرتني وجسمي يرتطم بكل ما يمر من تحته.

وقالت بعد أن وقفت عند باب غرفة العجوزين:

- انظر.. انظر لهما إنهما ميتان أو شبه ميتين، كما ترى إنه بفعل السحر، السحر الأسود، وأنا لست بإنسية إنما جنية، فقدت قدراتي الخاصة بالتخفي والتواري عن أنظاركم أنتم البشر، بسبب لعنة حلت بي من ذلك العجوز البائس.

وأكملت حديثها:

- هذا العجوز كان أكبر ساحر في المنطقة قبل عشرين سنة، وتعلم فنون السحر الأسود على يد أحد أكبر الجن لدينا، وأصبح من أشهر السحرة الذين يملكون مهارات عالية تفوق أي ساحر من أقرانه.

وكان يقدم خدمات للناس تحت مقابل مادي ويعالج العديد من الأمور ويكشف الحقائق ويدمر الأسر ويفرق بين الأزواج، حتى أصبح يملك أموالا طائلة يستطيع شراء أي شيء ويحصل على أي شيء، لكنه كان يعاني من مشكلة كبيرة هي العقم، لا يستطيع الإنجاب، لم يجد حلا لمشكلته، مع العلم بأنه متزوج، وحلمه أن يكون له ابن يحمل اسمه.

حاول عن طريق السحر وقدم العديد من التنازلات من أجل الحصول على أبناء إلا ان كل محاولاته باءت بالفشل.

الى أن جاء ذلك اليوم وأعلن هذا العجوز توبته، وترك جميع أعمال السحر التي كان يقوم بها في السابق، طبعا هذا الأمر اثار غضب المارد الأكبر من الجن لدينا، وانزعج كثيرا من تصرف هذا الرجل، لأن شروطنا تمنع أن يدخل أي شخص الى عالمنا ويعرف جميع أسرارنا ومن ثم يتراجع لأنه من المؤكد أن يكون مصيره الموت.

الجميع استغرب من أمر المارد الكبير الذي لم يقم بقتله، وتركه لفترة طويلة، إلا أن قام بتصرف غريب، وجنّد العديد من أفراد الجن من قبيلتنا وجعلهم يسكنون تلك الأشجار الموجودة في حديقة هذا العجوز، من أجل مراقبته، بالإضافة الى إزعاجه وتنغيص حياته.

مرت الأيام سريعة، ونحن نقوم بإزعاج العجوزين، والذي أصبح في نظر الناس إنسانا ملتزما في الدين والتقوى ومضربا للناس في التوبة النصوح.

ويعلم العجوز جيدا أننا نسكن الأشجار، وعيوننا دائما تراقبه، كان لا يخافنا ويصدنا سواء بالخبرة التي يمتلكها أو خلال قراءة القرآن الكريم، كانت قوته

وصموده فوق ما نتصور.

وبعد صبر طويل رزقه الله بطفل، الذي أصبح شغله الشاغل، واهتم به اهتماما كبيرا وراعاه بطريقة مثالية، كان العجوز يعلم بوجودنا وكان حريصا كل الحرص على حماية ابنه، كوننا كنا نتربص بولده كثيرا، وبنفس الوقت لم تأتِنا أي أوامر من المارد الكبير بقتله.

ثم توقفت عن الكلام... واتجهت ناحيتي وقامت بجري مرة أخرى من جديد، وأنزلتني بطريقة عنيفة وجسمي كله يرتطم في أدراج السلالم وهي تسير ناحية الحديقة الخلفية من البيت وقالت:

- انظر انظر..

وأشارت بيدها الى الأشجار، وقالت:

- هذه منازلنا كما ترى، نسكن هنا منذ سنين، ونقوم بإزعاج هذا العجوز وزوجته وقوتنا وضعفنا كلها مرتبطة بالأشجار وتعرضها لأي خطر مرتبط بها، ونحن نقوم بحماية أنفسنا من الإنسيين من خلال تخويفهم وإرهابهم، لأننا مرتبطون ارتباطا كليا بها وأي خطر تتعرض له ينعكس علينا وبالتحديد إذا قام أحد بقطعها.. يعني موتنا؟

ونحن نسعى بكل ما أوتينا من قوة الى حرق قلب العجوز بقتل ابنه، وكنا ننتظر التعليمات من المارد الكبير في هذا الأمر.

الى أن جاء ذلك اليوم الذي كان مفصليا ووضع حدا لجميع هذا الترقب، بعد أن وصل عمر ذلك الصبي الى السادسة وكان يلهو تحت الأشجار، وفي لحظة من غفلة أبيه عنه، وبالتحديد قرب منازلنا (أي الاشجار)، وكانت أغلب الأشجار مليئة بالثمار، وكان الطفل يقوم برمي هذه الأغصان بالحجارة، وكانت إحدى الأشجار يسكنها ابني، الذي انزعج كثيرا من تصرف الولد.

وبعدها قام الولد الصغير بتسلق شجرة ولدي، الأمر الذي جعل ابني يدفع ابن العجوز وإسقاطه من أجل إبعاده عن الشجرة، السقطة كانت مميتة، أفقدت الولد روحه.

علم العجوز بما جرى وحزن حزنا شديدا على موت ابنه، وتأكد أن موته لم يكن حادثا

قضاء وقدر، وأن هناك من قام بإسقاطه، بل كان متأكدا من أن السبب وراء هذا هو الجن الذين يسكنون الأشجار.

في بداية الأمر، كنا نتوقع أن تكون ردة الفعل كبيرة وعنيفة من العجوز والانتقام السريع، إلا أن الأمر طال ومرت سنة دون حدوث أي شيء، هدوء

تام امتلأ به البيت، حتى جاء ذلك اليوم وقام بطريقة غريبة استخدم فيها أحد طلاسم السحر المعقدة، الذي تعلمه منا في السابق، وبواسطة هذا الطلسم استطاع حبس جميع أبناء عشيرتي من الجن الذين يسكنون تلك الأشجار، وقام بحبسهم في هذا الدولاب الذي أخرجتني منه، حيث كنا من بينهم أنا وابني، لأنه كما تعلم سبق وأن مارس السحر ولديه قدرات خاصة في هذا المجال.

ومارس معنا أشد أنواع التعذيب، لأنه متمرس بالسحر وكيفة التعامل مع الجن، وكان يعذبنا بشدة من أجل معرفة من قام بقتل ابنه, ومن شدة العذاب الذي لم يتحمله من كان يسكنون الأشجار من الجن اعترفوا أخيرا للعجوز، ودلوه على قاتل ابنه، الذي كان ابني.

ومن دون أي مقدمات أعلن العجوز القصاص من ولدي وقتله ردا على ما فعله، كونه السبب الرئيسي لوفاة ابنه.

حاولت مع العجوز أن يعفو عن ابني في مقابل أن نترك له البيت ويعيش في سلام وهدوء.

لكنه رفض كل العروض، وقال لا بد من القصاص من ابنك الذي قتل فلذة كبدي وحطم قلبي، ولا بد من تحطيم قلبك وتشعرين بالألم الذي تجرعته بسبب قتل ولدي.

وبالفعل كان العجوز يعرف جيدا أن موتنا بقطع الأشجار المزروعة، وجاء يوم

التنفيذ حكم الإعدام في ابني وقطع تلك الشجرة والتي على إثرها مات ولدي

.. قتله العجوز اللعين.

قالتها بحزن ويأس.. حطم قلبي.. وكررتها أكثر من مرة، أنا أعلم أنك لا تعرف معنى هذا الشيء.. وأنا متأكدة أنك تراه في عينيّ، اقتربت مني كثيرا ووضعت وجهها في وجهي..

فعلت كل المحاولات للانتقام من العجوز، لكنه كان يملك قدرات تفوقني..

حتى أنني حاولت قتله ولم أفلح في ذلك، كان يملك ما لا أملكه، بعد أن استفاد من تعليم المارد الكبير..

وهي عبارة عن طلاسم بسببها قام بحبسنا، واستعملت أقصى قوة لدي وجربت كل

الطرق، في المقابل هو استعمل أقصى قوة لديه، وهذه الأمور في عالم السحر إذا

ازدادت تكون نتائجها عكسية.

لحظتها ابتعدت عن وجهي، ووقفت على أحد أغصان الأشجار، وقالت بهدوء:

- انعكس السحر علينا نحن الاثنين طبعا، وكان هذا الأمر تحت إشراف المارد

الكبير، الذي كان غاضبا من الجن الذين كانوا يسكنون الأشجار بعد أن تم قتل ابن العجوز دون موافقته، والحرب التي تمت بيني وبين ذلك العجوز، بالإضافة الى غضبه السابق عليه، لتحل اللعنة الشريرة علينا، وكان انعكاس السحر أو اللعنة علينا نحن الاثنين.

واللعنة عبارة عن اختلال في التوازن وظهور علامات شحوب في الوجه، وفقدان جميع الانفعالات والأحاسيس والشرود الذهني، أي يعني أنك تصبح جثة متنقلة.

وعلى أن نتبادل اللعنة في ما بيننا، يكون هو في النهار بالصورة التي رأيتها بها، لكنه لا يستطيع الخروج من محيط بيته، لأن خروجه يعني موته، بينما أنا أكون أشبه بالجثة الهامدة مركونة في هذا الدولاب وقت النهار.

أما الحال في الليل فيتغير وتنعكس الأدوار، أنا أكون بمثل وضعه، ولي حرية التحرك والتصرف، وخروجي من محيط منزله يعني موتي. هو يكون كجثة هامدة كما رأيتها ملقاة على السرير.

إلا أن هذا العجوز الملعون حبسني في هذا الدولاب بعد أن فقدت الكثير من مميزاتي كجنية.

وطريقة فك طلاسم هذه اللعنة تكون عن طريق بني البشر، بفك قيودي وإطلاق سراحي، وبنفس الوقت لا بد من موته قبل بزوغ الشمس ومن وقت فك القيود.

أما بخصوص طريقة فك طلاسم العجوز وزوجته، هي أن أحدا من بني البشر يصاب باللعنة، وتكون بقطع جميع الأشجار التي تراها في هذه الحديقة.

صمتت قليلا..

بينما أنا بدأت أتنفس بشدة وأعياني التعب كثيرا وقطرات الدماء تتدفق من جسمي ونظرت لها مجددا.. وقلت لها بلسان ثقيل أعياه التعب:

-لماذا شجرة التوت هي الوحيدة المزروعة ما بين أشجار السدر؟

قالت الجنية بغضب:

- العجوز من شتلها في هذا المكان تخليدا لذكرى ابنه الذي كان يحب ثمرة التوت وهي بنفس المكان الذي سقط فيه ومات، وهذه الشجرة أصابتها اللعنة التي أصابت جميع الأشجار.

ثم صمتت قليلا مرة اخرى وقالت:

- شجرة التوت هي مكان شجرة السدرة التي كان يسكنها ابني في السابق.

قلت لها من جديد بتعب:

- وما دخل أخي بكل هذه الأحداث؟

قالت بعد أن غيّرت مكان جلوسها:

- أخوك المسكين جاء قبل شهر، وبالتحديد أثناء الغروب، وتسلق السور من أجل قطف ثمار إحدى الأشجار، لكنه تمادى كثيرا عندما قفز الى الداخل، ووقتها الشمس قد غابت، وهو الوقت الذي تعود بها الجنيات الى وضعهم الطبيعي، الأمر الذي صادف إحداهن، ووضع عيناه بعين الجنية وأصابته الصدمة واللعنة بنفس الوقت.

وكما قلت لك، عودة أخيك الى وضعه الطبيعي هي بقطع هذه الأشجار، لكن الآن فات الأوان، لأنك ستموت، بينما أنا سأحظى بحريتي واعود الى طبيعتي.

ولا بد من موتك الآن.. لا بد من موتك الآن.

واقتربت مني الملعونة وشدت ملابسي بقوة وجرتني الى وسط الحديقة، الآن سأفك قيود اللعنة الشريرة بإزهاق روحك..

استسلمت في البداية الأمر للموت، بعدما كنت ملقى على الأرض، فقواي شبه منهارة

بسبب ارتطامي بالحائط لأكثر من مرة من هذه الجنية، وكنت أفكر بالطريقة التي سأموت فيها، وبدأت أتشهد على روحي.

لكن؟!

فجأة تذكرت شيئا.. تذكرت أن السكين ما زالت في جيبي، أتذكرون في بداية الأمر عندما قلت لكم لماذا آخذ معي سكين.. إنها الفطرة.

وجاءتني تلك الفكرة الجهنمية التي تحتاج الى سرعة التنفيذ والتوفيق من الله، لأنها

السبيل الوحيد لنجاتي من هذه الورطة الكبيرة، بالفعل بينما كانت الجنية تقف بجانبي

وكانت تتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة، مددت يدي بهدوء الى جيبي وأخرجت السكينة ومن حسن حظي أنني كنت قريبا من الأشجار.

وبحركة سريعة قذفت السكينة كما يفعل أصحاب السيرك نحو شجرة السدر التي بجانب شجرة التوت، وهو بيت الجنية كما ذكرت، وتكمن نقطة ضعفها في قطعها أي أنها مرتبطة بها كثيرا، وإصابة الشجرة ستنعكس على أداء الجنية.

وما هي الا ثوانٍ... تتتتـــــك... حتى استقرت السكينة في وسط الشجرة..

حولت نظري الى الجنية التي صدمت من ردة فعلي، ومدت يدها نحو بطنها، وكأن السكينة انغرزت حقيقة في جسمها وقالت:

ماذا مممماذا فعلت..... وبدأت تصرخ من شدة الألم...

وبينما هي تتضور من طعنة السكين...

وقفت بصعوبة.. إنها لحظة التمسك بالحياة، وكنت أعرج.. نظرا لإصابتي المباشرة في إحدى قدمي.. وكنت أبحث وقتها في الحديقة عن أي شيء أتسلح به لأضرب به الشجرة..

حتى وقعت عيناي على فأس كبير.. إنه منقذي.. انطلقت تجاه ذلك الفأس بحركة بطيئة حتى وصلت ومددت يدي...

وبينما أنا أحاول رفع الفأس.. شعرت أن هناك يدا قد قبضت على قدمي، وقامت بسحبي.. إنها الجنية تريد أن تمنعني من الوصول الى الفأس لأقاوم بكل شدة وبما تبقى لي من قوة..

صراع قوي حصل بيني وبينها، لكن قوتها قد خارت بسبب ضربة السكين.. بعدها أمسكت بالفأس وانطلقت نحو الشجرة من جديد..

وأنا أجر نفسي جرا، اقتربت منها رفعت الفأس عاليا، وكما قلت لكم قواي كانت منهارة، لكن التمسك بالحياة وحب النفس جعلاني أملك القوة من جديد حتى سقط ذلك الفأس على جذع الشجرة.. وسمعت تلك الصرخة.. أرجوك أرجوك توقف..

وكلما رفعت الفأس أسمع صراخها وتوسلها بأن أتوقف، لم أستمع لها أبدا، كانت حياتي هي الأهم، وكنت أضرب بكل قوة على الشجرة التي بدأت تتفت أمامي..

كان صوت صراخها ونحيبها يملأ المكان، بعد كل ضربة من الفأس على الشجرة، إلا أن الصوت بدأ يتلاشى رويدا رويدا، وعندما نظرت لها وكانت

تنصهر أمامي كأن قوى خارقة تضربها بالنار الحارقة، حتى مالت الشجرة الكبيرة وسقطت على سور الحديقة، وبعدها لم أسمع ولم أرَ تلك الجنية.

جلست على ركبتي وأنا أنظر الى المكان، وأنفاسي تتدفق بقوة من شدة التعب، هنا

نظرت الى شجرة التوت التي بقطعها يبطل مفعول السحر الذي أصاب أخي، كما قالت لي الجنية، لأتقدم ناحيتها وأنا شبه منهار، وكل ما يدفعني هو حبي لشقيقي، وقمت بضربها بقوة من أجل قطعها، كانت العملية صعبة نظرا لما أعانيه، وفور انتهائي لم أشعر سوى بأنني سقطت على الأرض أنظر حولي بهدوء وأنفاسي تتلاشى رويدا رويدا حتى أغمى علي لمدة أكثر من ساعتين على ما يبدو..

ولم أفق إلا بعد أن مرّ شعاع نور الشمس، الذي اخترق الأشجار الكثيفة، المكان فوق عيني وصوت زقزقة العصافير تملأ أذني، لأجد نفسي ملقى بوسط هذه الحديقة الملعونة.. أنظر الى المكان وآثار التعب لا تزال فيني، نهضت وأنا أحاول أن أستجمع قواي من جديد..

وانطلقت الى البيت بعد ليلة حافلة بالمغامرة والخوف، وكل تفكيري كان ينصبُّ في وضع أخي، كيف أراه بعد أن أبطلت مفعول السحر، وهل صدقت تلك الجنية في كل ما قالته؟

وعند وصولي الى البيت، دخلت وانطلقت نحو غرفة أحمد مباشرة، وكانت ملابسي ممزقة والتراب والدماء يحاصرني من كل اتجاه، وقتها كان كل تفكيري ينصبُّ نحو أحمد..

فتحت باب الغرفة وكان أحمد وقتها نائما..

مددت يدي نحو جسمه وقلت بهدوء: أحمد أحمد.. هنا انتبه لي والتفت ناحيتي

فرحت كثيرا وقلت له هل تسمع صوتي؟

قال بهدو.. نعم.

كررت سؤالي، هل تعرف من أنا؟

قال: نعم أنت أخي.. ما بالك يا رجل؟

احتضنته بكل قوتي حتى ذرفت دمعة صغيرة من عيني من شدة الفرح..

لم أتمالك نفسي، وقمت أصرخ وأصرخ من الفرح، حتى أنني نسيت جميع الآلام التي كنت أعاني منها، حتى انتبه جميع من في البيت لصراخي وأنا أقول أحمد عاد الى طبيعته أحمد بدأ يتكلم ودموع الفرح تتساقط بشدة..

حتى وصل أفراد عائلتي الى الغرفة بسبب صراخي من الفرح، ليتفاجأ الجميع بعودة أحمد الى حالته والكل يحتضنه وأمي تذكر الله وتشكره وتحمده من شدة الفرح وأبي وقف مبتسما ويمسك وجهه ويتفحصه من جديد..

هنا سألني والدي عن الحالة الفوضوية والجراح الكثيرة التي في وجهي، وحكيت له القصة كاملة منذ دخولي البيت وحتى قطعي الشجرة..

يا له من انتصار رائع، ما أجمل أن تقدُم على مغامرة لا تعرف عواقبها، وبالأخير تنتصر فيها بعد أن تساعدك الأقدار!

مرّ اليوم وكل أفراد عائلتي سعداء بحال أحمد، بينما أنا مسلتقٍ على السرير سارحا بعد أن هدأت كل حواسي، وارتاحت نفسي بسبب عودة شقيقي الى حالته، لأتذكر هذان العجوزان اللذان تركتهما بذلك البيت، هل عادا إلى حالتهما الطبيعية أم أنهما لا يزالان يعانيان من تلك الحالة؟

طردت تلك الفكرة من رأسي، وقلت بنفسي ما شأني بهما كل ما يكفيني هو عودة أحمد الى وضعه الطبيعي، اعتدلت في نومتي واستلقيت على جانبي الأيمن، وكانت النافذة أمامي بشكل مباشر، قطع حبل تفكيري تلك الأصوات الخافتة التي تصدر من جانب النافذة، ولم أكترث كثيرا، وقلت لربما تكون قطة أو حمامة، ثواني حتى ازدادت الحركة وتبعتها بعض الأصوات، هنا تنبهت حواسي بأن ما يحدث ليس أمرا طبيعيا، شعرت أن هناك شيئا غير مألوف يحدث خلف النافذة، تقدمت ناحيتها، في البداية رأيت خيالا غير واضح يتحرك خلفها، بدأ الخوف يتسلل بداخلي، هل أفتح النافذة لأتبين ما يحدث خلفها؟!

وبحركة سريعة فتحتها بكل قوتي لأصعق من الخوف عندما رأيت ذلك الشيء الذي كان ينظر لي بحقد وغل، لم أتبين ما هو إلا بعدما تحدثت قائلة:

- الحساب لم ينتهِ يا حسين، صدقني لن أتركك؟

ثم اختفت.. إنها الجنية التي قتلتها ليلة البارحة، لا أعلم كيف جاءت إلى هنا، وكيف عادت للحياة؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قزح بعد شهر من ليلة شجرة التوت

سواد في سواد، فتحت عينيّ على الظلام، دقات قلبي متسارعة، حاولت رفع يدي، وجدتهما مكبلتين، هممت بالنهوض فلم أستطع، قدماي مقيدتان، الهدوء سيد الموقف، بدأت أقاوم لفك تلك الأغلال اللعينة، ولم أجد إلا رأسي يرتطم بجانب وقدماي تدقان بالجانب الآخر، وأنا مستلقٍ بالطريقة الجنينية، تحسست المكان حولي، كل شيء ضيق، لا مجال للحركة..

تساءلت بنفسي: هل أنا في تابوت؟

أول فكرة تطرق برأس من يكونون بمثل وضعي؟

رائحة الأخشاب حولي منتشرة، والملمس يؤكد أنني في مكان أشبه بالصندوق..

هل ظنوا بي أنني ميت ووضعوني في تابوت؟!

وردموا علي التراب..

أكره الموت بهذه الطريقة..

بدأت فوبيا الأماكن الضيقة، تقطع أنفاسي مع أنني قبل ثوانٍ كنت أقاوم، لم أجد حلاً سوى الضرب والركل محاولاً تحطيم تلك الأخشاب اللعينة التي حولي.

أضرب هنا، وأركل هناك، شعرت بشيء ثقيل يجثم على صدري، يكبت أنفاسي، الكلمات لا تكاد تخرج من فمي، أشعر بضربات قلبي تهز صدري هزاً، أكرر محاولاتي بشدة أكبر، وقوة أكثر، الإحساس نفسه ينتابك عندما تعرف أنك ستخرج من المأزق في أي لحظة، ومع كثرة المجيء والعودة والدفع والدوران، اخترقت تلك الأخشاب التي تحطمت، لأتدحرج بقوة، ويرتطم رأسي بأحد الحيطان، ألتفتُّ خلفي أدقق بالمكان الذي ساده الهدوء، أنظر إلى ذلك الخشب المتناثر الذي رحت أنظر الى بقاياه حتى انتهيت به إلى دولاب خشبي كنت للتو خرجت منه، وأجد نفسي في غرفة صغيرة امتلأت بالصور، لم أستطع معرفة الوجوه التي توسطت البراويز بسبب سيطرة الظلام، مع بصيص النور الذي يتسلل من النوافذ، أحاول النهوض، أجد صعوبة بالغة والثقل لا يزال يتربع على ضلوعي، صوت دوي الرياح بالخارج، كعواء ذئب يصدر من الشبابيك المغلقة عبر الفتحات الصغيرة.

شعرت بحركة غريبة بالمكان...

فجأة صوت ضحكات، همهمات، تمتمة من بعيد، لم أحدد مصدر الصوت؟

حاولت فك تلك الأشياء التي قيدت حركتي، أجد صعوبة بالغة، الأمر أكبر مما تصورت، الهدوء منتشر مع هذيان الظلام، وفجأة ملأت المكان تلك الضحكات النسائية مع بكاء وعويل لأشخاص لا أراهم، ودمدمة غير مفهومة، الصوت يزداد ويقترب مني أكثر وأكثر، التفت يميناً ويساراً، أنظر حولي أريد معرفة أماكن الأصوات، وبينما أنا كذلك حتى شعرت ببعض الأيادي التي اخترقت الأرض من تحتي وأمسكت بقدمي، والصرخات والضحكات تزداد، سقطت على أرضية تلك الغرفة فزعا، أحاول التخلص منها، كانت أقوى مما أتصور، مع محاولاتي اليائسة لم أجد نفسي إلا وأنا أرتطم بالحائط بعدما قذفتني..

عدت واقفا من جديد، لم أبالِ بالآلام التي انتشرت بجسمي، حاولت أجد مخرجاً من تلك الغرفة، الأيادي تخرج من تحتي مرة أخرى أحاول التملص منها، وفجأة اختفت وعم الهدوء، انطلقت مسرعاً نحو الباب، حاولت فتحه، حيث كان مغلقا بإحكام شديد.

وأنا حاول.. سمعت تلك الأصوات التي كانت قبل دقائق تبكي وتضحك بنفس الوقت، حتى نطق أحدهم قائلاً:

أين أمي؟

الثاني: هو آخر شخص كان معها.

الثالث: إنه قاطع الأشجار ابن سمية.

حتى انفجر صوت كدوي الرعد من داخل الغرفة لم أحدد مصدره..

وقال تلك الجملة:

- عيوننا تراقب، نحن خلفك في كل مكان.

ليعود البكاء والنحيب والصراخ من جديد..

يتوقف كل شيء فجأة؟

التفت خلفي بهدوء أريد معرفة ما تلك الأشياء..

لتبرز خيالاتهم التي ارتسمت على الحائط المقابل، ذلك الخيال الذي يكبر أكثر كلما اقترب منك، وبينما أنا أدقق النظر حتى برزت أشكالهم..

صعقت عندما رأيتهم بتلك الأجسام، حيث إنهم أقرب للمسوخ..

أجسام مكورة مُلئت بالشعر، لا تكاد ترى ملامح وجوههم، ولا ترى منهم سوى الأيدي والأقدام الطويلة التي تتدلى منهم، ينظرون لك بعيون يقطر منها

الشرر، ثم يقتربون بحركة واحدة وبطء شديد، فيما كان آخرهم يحمل الفأس؟

نظرت إلى الباب الذي فُتح من تلقاء نفسه..

انطلقت هارباً..

لأجد نفسي في حديقة مهجورة.. أحيطت بالكثير من الأشجار بأغصان وفروع متشابكة ويابسة، ومع حفيف بعضها ببعض تصدر ذلك الصوت المرعب من أعلاها، وبالكاد ترى استدارة القمر من خلالها، أو يُخيَّل لك بأنك في غابة «أوكيغاهارا»([1]) اليابانية المرعبة، والتي تعني بحر الأشجار من كثافتها..

التفت خلفي، لأرى امرأة بثوب أبيض وشعر طويل غير مرتب، يتوزع على وجهها ملقاة على الأرض، يُخيَّل لك كأن عينيها مفتوحتان، وبمجرد التدقيق فيهما تغلقهما بحركة سريعة، بقيت عيني حائرة ما بين رصد تلك الممددة على الأرض وحفيف أوراق الأشجار التي تتطاير حولي، أعود بالنظر مرة أخرى إلى مكان تلك المرأة شاحبة الوجه، لأجدها قد اختفت ولم يبق مكانها سوى ذلك الفأس الملطخ بالدم..

يبدأ صوت البكاء من جديد، الذي يجعل قلبي يرتعد..

تخرج تلك المخلوقات ذوات الشعر الكثيف قصيرة القامة، لا أرى سوى لمعان عيونهم من بين شعرهم، في وسط الحديقة، تبدأ الأرض تتشقق تحت أرجلهم، يهربون فجأة، ويتركون فتحة كبيرة تمددت من داخلها أغصان يابسة بزوائد شوكية حادة..

كنت وقتها أحاول الهرب، لكن هناك قوة غريبة تدفعني للوقوف، على حافة الحفرة، أشعر لوهلة أنني سأسقط.

منظر مهيب، جمّد أطرافي من داخل الحفرة، وجوه بلا أجساد توزعت على أنحائها، وجوه تنوعت انفعالاتها، أحدهم يبكي، والثاني يبتسم، والآخر جامد، وهناك من عيناه برزتا إلى الخارج، وفي القاع لهيب من النيران المستعرة.

أشعر بشيء خلفي، أحاول الالتفات لأراه، القوة الغريبة ذاتها تمنعني من التحرك، صوته الخشن الذي يشعرك بالضيق وأنفاسه الحارة التي تلفح قفاي، تؤكد وجوده

ويردد تلك الكلمات: «من تعدى حدودنا، ورأى موجودنا، هو إذن خادمنا».

الوجوه نفسها لا تزال تحملق بي، قوة كبيرة تدفعني لأسقط بالحفرة، لا أشعر بجسدي إلا وهو يهوي إلى القاع، والوجوه نفسها تتكلم، دوي دمدمتهم لا يجعلني أميز الكلمات، مسافة سقوطي طويلة، أشعر بلهب النار تلسع

جسدي كلما اقتربت، أحاول التعلق بتلك الأغصان التي برزت أطرافها على جوانب الحفرة، أشعر بالاقتراب من القاع، وفجأة أقفز من فراشي وأنا متمسك بطرف سريري.

استيقظت من نومي فزعاً، واضعاً يدي على قلبي الذي يكاد يخرج من صدري، بسبب ذلك الكابوس اللعين، لم يبقَ برأسي سوى تلك الكلمة التي سمعتها من أفواه أولئك البائسون من داخل الحفرة مدح، فرح، نسمح، جرح، لم أميز تلك الكلمات..

العرق يتصبب من أعلى جبيني، والظلمة نفسها التي انتشرت بالكابوس، ملأت غرفتي الصغيرة، قرأت بعض الآيات القرآنية، محاولا إعادة الطمأنينة إلى صدري، واضعاً يدي على رأسي، أتذكر ليلة شجرة التوت، التي بدأت تقفز ذكرياتها المخيفة أمامي من جديد، أردد بداخلي لماذا تبقى الذكريات المؤلمة وتثبت وسط حاضرنا، كالجرح الذي لا يشفى كلما لمسته عادت به الحياة بالألم، تمنيت لو أنني أتحكم بعقلي الباطن، وأمسح كل ذكرى تعيسة، تباً لتلك الذاكرة الممتلئة التي تحفظ كل الذكريات المحزنة..

مددت يدي إلى كوب الماء الذي كان بجانب فراشي، أريد تبليل ريقي الذي جف من شدة رعب كابوس الحفرة، نهضت من سريري وتوجهت إلى الحمام، أقف أمام الصنبور، لأملأ كفي وأقذف الماء على وجهي محاولاً إقناع نفسي بأن كل ما حدث مجرد حلم، وبرودة الماء التي ارتطمت بوجهي هي الواقع.

نظرت إلى المرآة الصغيرة التي عكست وجهي، أخذ الأمر برهة، أتأمل ملامحه، وذهني شارد في مكان آخر، أدقق النظر متحسساً تلك التجاعيد الصغيرة التي ملأته، أنظر إلى الماء المتدفق من الصنبور سارحاً بمكان آخر، أرفع رأسي مجددا وبينما أنا كذلك أدقق النظر حتى ارتسمت على المرآة ملامح وجه آخر يقف بجانب كتفي غطى رأسه الشعر، بشرته القريبة للحمرة والمليئة بالسواد، وأنيابه الصغيرة التي برزت من تحت شفتيه، وعيونه الطويلة، ينظر إلي مع ابتسامة ماكرة، ارتعدت أطرافي، وجهه الحممي أفقدني الرغبة بالالتفات، حاولت طرد فكرة أن ما أراه غير حقيقي، حتى شعرت بأنفاسه تتدفق بقوة على ظهري، وشهيقه وزفيره يدويان خلفي، أفزعني الإحساس، وكدت أسقط من رعب المشهد؟

وعندما ألتفت خلفي بسرعة محاولا مواجهة الواقع، لم أجد سوى الفراغ الهلامي، عدت أنظر إلى المرآة أريد تصديق الحقيقة، لم يبق سوى وجهي عليها، من هول الحدث سقطت على أرضية الحمام واضعا يدي على رأسي وقلبي يعتصر خوفاً، لم أعد أتحمل تلك الأشياء التي تراقبني بين الحين

والآخر، أريد تكذيب عينيّ اللتين أكدتا لي أن ما أراه سوى حقيقة مرة وقفت خلفي، خرجت سريعا من الحمام، جارا أنفاسي اللاهثة، وأنظر خلفي متوقعا ظهوره في أي لحظة، لم يبق في ذاكرتي سوى وجهه الممسوخ.

جلست على فراشي محاولاً تهدئة روعي، ثمة أشياء كثيرة تعيش بداخلي منذ ذلك اليوم، لعل أبرزها الفزع غير المبرر، فوبيا غريبة سكنت داخلي، والأدهى من ذلك نظرة الناس إلي بعد حادثة الشجرة، فهم لا يصدقون ما حدث، ويعتبرونني كذاباً كبيراً، لأن كل ما قلته هو من أسطورة قديمة نسبتها إلي، اعتبروني حالة مرضية تحتاج الى العناية، أعيش أحلام يقظتي وأريدهم أن يصدقوها، حاولت إثبات ذلك فوجدت نفسي متهماً بالجنون حتى الثمالة، وحالتي النفسية ليس لها أي مسمى مرضي، زادتها تلك الكوابيس اللعينة التي تزورني كل فترة، وتطلب مني الانصياع إلى أوامر ذي الأنفاس الحارة؟

*****

لا أريد الحديث عن تلك الأشياء التي حصلت في بيت العجوز، أو الانصياع إلى ريائهم الذي أشعر به كالسياط تنزل على ظهري، قررت أن أصبح مثل التمثال الحجري فاتحاً فاهه فقط، ومركوناً في زاوية الغرفة، يتراءى للأطفال الذين يحملقون أعينهم وسط السقف قبل منامهم فزعين منه، وشاردي الذهن بوجهه الممسوخ، وبمجرد تخيلهم يلقون غطاءهم الصغير على وجوههم متظاهرين بنسيانه.

هم من أرادوني هكذا، الكل فقد ثقته بي، أشعر عندما أمرّ الى جانبهم بنظرات الهمس، وهي تقول بطل الأساطير والجان قد وصل، ضحكاتهم المتخفية وراء وجوههم تهدم كل حيطان الثقة التي بنيتها كل السنين الماضية.

لم أعد أنتمي لهم، فانزويت في حجرتي التي أصبحت محرابي الذي أصلي فيه للخلاص منهم، ونافذتي هي متنفسي الذي أستنشق منه أكسجين الحياة، فقط أراقبهم، ولا أريد الانغماس معهم.

والمصيبة أن الأمر لم يقتصر على البشر، بل كان يأتي من أقرب الناس لي.. أمي التي أصبحت تقيم لي ما أشبه بالقداس بطقوس أخذت منها فقط فكرة الدخان المتطاير ذي الرائحة التي تكاد تخنقني بذلك العشب الجاف الذي ترميه على الجمر..

«الحرمل يطرد الجن والأرواح الشريرة».

هذا ما تقوله لي، وما يزيد طقوسها رعبا موعد إشعالها لتلك الأعشاب قبل غروب الشمس بدقائق في غرفتي الصغيرة، بعد تلاشي الأضواء تاركة فراغا

للظلام، تزيد جراحي بطريقة غير مقصودة، تحطم ما بقي من ثقتي بخوفها وحرصها غير المبرر، أفعالها انعكاس على عدم تصديقها، وثرثرة نساء الحي تنساق لها مع الريح لتعشعش في عقلها، رامية خلفها مشاعري التي تحطمت على صخرة نظرة المجتمع.

أما أبي الوحيد الذي رأى آثار معركة الليلة الخانقة أو ليلة الجنية، هو الآخر أصبح يؤكد للناس أن قصتي مجرد وهم، وتأثر لما حصل لأخيه، هو الوحيد الذي يعرف أنني صادق بكل كلمة قلتها، نظرة المجتمع جعلته يتنازل عن صدقي، ويضرب بمعوله الحديدي على جدران نفسي ليترك تلك التشققات من ضرباته عليها، ولا يريد أن يقع في الزاوية الضيقة التي وضعني بها الناس، بل يريد الوقوف في صفهم ضدي..

لم يتبق لي سوى أخي أحمد الذي أصبح كمعدن البندول المعلق وسط الساعة، تارة تجده يعيد لملمة بعثرة ثقتي، وتارة يجاري والدي تحسبا لردة فعلهم.

يقول لي إنه لا يذكر أي شيء لما حدث له، وكل ما تبقى له لحظة شروعه في تسلق بيت العجوز لقطف ثمار التوت ليتوقف بعدها الزمن عنده، ليصحو في بتلك الليلة ليجد نفسه في فراشه، وما هي الا لحظات حتى دخلت عليه بالحالة التي رآني فيها، ممزق الثياب ملطخاً بالطين والدم..

أقف أمام النافذة أراقب الناس عن بُعد، حتى حفظت كل ما يحدث بالشارع، متى يعود جارنا السمين من عمله ليجلس فترة طويلة بسيارته يتحدث بهاتفه قبل الدخول إلى بيته، دافعا أمامه بطنه المنفوخ، أو حالة جارنا الآخر الذي يحرص بشدة على اصطفاف سياراته بشكل منظم، كما يحرص على عدم ترك الفراغات الكبيرة بينها، حتى ذلك الرجل الذي يقف كل يوم في الساحة الترابية القريبة البعيدة من منزلنا فقط يحملق النظر ويدخن سيجارة تلو الأخرى.. أصبحت حياتي كالنهر الراكد الذي كل ما طال ركوده، تكالبت عليه الحشرات، واضمحلت مياهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسائل نصية

هل أنت مستعد للمهمة، اقتربْ لا تخف، كسرت القيود، وتعديت الحدود، أنفاس حارة قريبة من شحمة أذني، كأن أحدهم يتمدد الى جانبي على الفراش، شعرت بوجود شخص، حركت غطائي ثم قفزت من فراشي فجأة، والتفتُّ بسرعة ناحية الجانب الآخر، كالعادة لا أجد شيئاً سوى الفراغ المرعب؟

هذه المرة ليست وهماً أو تخيلات، أحد ما كان يهمس بأذني..

كانت الساعة تشير إلى الواحدة فجراً، والغرفة شبه مظلمة، هذا ما حصل في تلك الليلة، كل مرة أظن أنه حلم من أحلامي البائسة الذي يُقفزني من فراشي، لا هذه المرة ليس حلماً إنه واقع، شعرت بشيء ساخن بطبلة أذني، وحرّك غطائي..

أعود الى فراشي متسلحاً ببعض الآيات القرآنية، وعيناي تراقبان المكان بدقة غير متناهية، وسط ذلك الهدوء الشاحب، الذي كسره صوت هاتفي معلناً وصول رسالة، والتي هزت قفصي الصدري بسبب شدة ضربات قلبي، ضوء الهاتف الذي ملأ جانباً بسيطاً من الظلام أشعرني ببعض الطمأنينة، الذي بدأ يهدأ بالتدريج، رحت أتفحصه أريد معرفة من المرسل في هذا الوقت، فأنا لم أعتد على أحد يرسل لي أي رسالة بهذه الساعة، بسبب ابتعادي عن البشر وقطع كل علاقاتي بهم، فتحت الرسالة التي كانت عن طريق برنامج «واتس أب».

«أعلم جيداً أنك لا تعرف من أنا ومن دون مقدمات أريد الدخول في الموضوع، احرص على الموافقة على طلبه وادخل في التفاصيل، الأمر أصبح في غاية التعقيد، وجوه خفية تراقبك في كل مكان وبكل ساعة، ينتظرون ساعة التنفيذ..

الموافقة هي الحل لكل مشاكلك، أنا النائب بهذا العالم، والوسيط ما بينكم.. بمجرد الموافقة، كلمة السر بيننا «التميمة السوداء».

أعيد قراءة الرسالة النصية أكثر من مرة، محاولاً إيجاد تفسير للألغاز التي ملأتها، أوافق على ماذا؟ من الوجوه التي تراقبني؟ من هذا الوسيط؟

هل يعقل أنني جننت أو وصلت إلى حالة من الهذيان الروحي، أو التوهم، أسمع وأرى أشياء ليست من الواقع، وهذه المرة أقرأ، الألغاز الكثيرة تعج بها حياتي..

أنظر إلى رقم الهاتف، أضغط على الزر الأخضر محاولاً الاتصال «الجهاز مغلق»؟

ماذا يحدث لي، للحظة تتمنى أن تعود بالزمن إلى الوراء، لتقف عند أحد مشاهد حياتك، وتضغط زراً من أزرار الكون تريد إلغاءها ورميها في سلة قمامة الزمن وحرقها في ذلك الكون الواسع، تمنيت لو أنني لم أذهب إلى بيت العجوز، ولم أتحدث مع تلك الجنية، أو أقطع شجرة التوت.

طرقات على الباب بعزف متناغم، أعرف جيداً من يدق بهذه الطريقة، أحمد الذي يسعى إلى إعادة تحريك مياهي الراكدة..

ادخل الباب مفتوح..

صباح الخير يا مغامر العصر..

ابتسمت بعد أن أزحت الغطاء عن رأسي، محاولاً إبعاد بقايا النوم الذي لم يتغلغل في خلايا مخي ولم أشبع منه، بعد تلك الليلة، والألغاز التي تتقافز أمامي..

صباح النور..

لدي خبر سيحيي كل الآمال التي بداخلك..

ادخل بالموضوع، قلتها فأنا أعرفه يحاول إسعادي بأي طريقة، لكنه هذه المرة أخرج جريدة خلف ظهره، وجلس بجانبي على السرير، ثم شرع بفتحها وقال:

اقرأ هذا الخبر؟

مرض غريب يصيب فتيات الكلية؟

كان هذا العنوان الذي اعتلى الخبر، نظرت إليه وعيني تستفسر، ما دخلي أنا بمثل هذه الأمور؟!

أكمل.. أكمل هناك العديد من المفاجآت تنتظرك...

انتشر مرض غريب بعدد من طالبات كلية التربية الأساسية، أعراضه تكون وجوم وبطء في بالحركة، النظر إلى جهة واحدة، شحوب وبروز العروق للخارج، عدم الاستجابة إلى كل من المؤثرات التي حوله، وقد صرح بعض الأطباء بأنه لا يوجد أي تفسير لهذه الأعراض وهي حالة غريبة وتحدث لأول مرة؟

نظرت إلى أحمد، فاتحا فمي على مصراعيه، بينما هو يهز رأسه مع ابتسامة شقت نصف وجهه..

قلت له مستفسراً:

- هل تقصد أن هذا المرض هو الذي أصابك أنت؟

بالتأكيد هذه الأعراض هي التي قرأتها في التقارير الطبية الخاصة بي..

قلت بعد أن طويت الصحيفة، بارزاً الخبر أكرر النظر فيه وقراءته:

- هذا يعني أن هناك بوادر لعودة تلك اللعنة مرة أخرى؟

الخبر يقول: إن الأطباء يؤكدون سلامة المرضى، ولا توجد أي مشاكل صحية أو عضوية فيهم، وكل أعضائهم سليمة، والأعراض تزيد من غموض المرض عند الأطباء؟

لحظة.. ما شأني بكل ذلك، هل تريد أن تزداد لعنات والديك والناس علي، يكفي ما حصل لي منهم.

أطوي الجريدة مرة أخرى بطريقة أسطوانية ضاغطاً عليها بكل قوة.

جلس بجانبي وقال:

حسين يكفي لا بد من الخروج من القوقعة التي تعيش بها، أنت إنسان طموح، ولديك العديد من الأحلام، لا بد أن تكون واثقاً من نفسك، حادثة البيت ومرضي مرت عليها أكثر من شهر، أنت انطويت على نفسك مثل الجريدة التي بيدك، بسبب أن الكل لا يصدق، كل ذلك لا يهم، لا تلتفت إليهم، ولا تكترث إلى همسهم ولمزهم، هناك نوع من البشر مثل الحمم البركانية التي تزحف على نجاحات الآخرين، لا تصبح أسير كلامهم، أو تكون صاحب ذاكرة قوية تلتقط كل الذي حولها، وتنعكس على ذكرياتك الماضية، والضحية بالأخير أنت..

قلت له، بعد أن وضعت الصحيفة على السرير:

- الأمر لا يقتصر عليهم، لا تعلم ما هو الشعور الذي ينتابك، عندما تعتقد أنك حققت نجاحاً ليس له نظير، ومن ثم يرى الناس وكل من حولك، أن كل ذلك مجرد أوهام، وأنني مريض نفسي يحتاج إلى علاج..

أنا من رأى الجنية، أنا من قطع الشجرة، أنا من حلّ لعنة ذلك العجوز، أنا من خاطر بمستقبله، أنا من أنقذك..

كل هذا، وأمك تملأ غرفتي بدخان حتى الحشرات التي تسكنها تختنق منها، محاولة طرد الروح التي تسكن بداخلي أو إغماض العين التي حسدتني..

وأبي يبرر كلامي على أنه أوهام، ومتأثر بحادثتك، يزيدون شكوك الناس بقصتي، لأن مكانته الاجتماعية لا تسمح بأن أتحدث في تلك الأمور التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

قال بعد أن وضع يده على كتفي:

- أعلم يا حسين وأنا متأكد أن كل ما حدث ليس مجرد أوهام، هي حقائق حدثت، والخبر الذي جلبته لك دليل واضح على ثقتي بك، وحقيقة الأحداث التي وقعت.

فقط جرب وادخل إلى حياتك التي فقدتها، ارجع أخي الذي كان يرسم أحلامه على أبواب مخيَّلاتنا، الجلوس ما بين تلك الحيطان، لن يجعل الناس تصدقك، أو تعيد الثقة الى نفسك، وأعتقد الخبر الذي قرأته سيغير العديد من الأمور ويكشف الحقائق.

نظرت إليه وقلت:

- لم تعد هناك أي فائدة من الكلام، أنا في نظرهم مجرد مجنون، يحكي الأساطير..

وتركته رامياً تلك الجريدة من النافذة ورحلت.

*****

صوت جدتي بهذه الساعة يدق في رأسي، جملتها الشهيرة التي لا أنساها أبداً، أجمل انتصار في الحياة التغلب على اليأس، هل الأرواح الغائبة تشعر بالأرواح التي لا تزال تتنفس، هناك يأس يتفشى بأعماقي، وبصيص الأمل أرى نوره من بعيد.

حسين.. هناك من يريدك بالخارج، قالتها الخادمة بلكنتها العربية المهجنة..

لا أستقبل الضيوف، فضولي يتساءل بداخلي من يريدني بهذه الساعة؟

تعود الخادمة، وتكرر الجملة، وتزيد عليها، إنه يلح بطلبك؟

سألتها: من ذلك الذي يريدني؟

ردت: لا أعرف أول مرة أراه.

ارتديت ملابسي، محاولاً ترتيب هندامي، وترميم بعض شكلي..

عند الباب:

آسف على إزعاجك أخ حسين..

معك عادل عبيد صحفي بإحدى الجرائد المحلية..

نريد أن نجري معك مقابلة صغيرة إذا كان وقتك يسمح بذلك..

نظرت إليه مجدداً باستغراب:

ما سبب إجراء المقابلة، وعن ماذا تريدون التحدث معي؟

ابتسم بهدوء متداركاً الموقف، وأردف قائلاً:

بصراحة ومن دون أي مقدمات موضوعنا بشأن الحالة الغريبة التي أصابت الطالبات السبع في كلية التربية الأساسية، وعلى حسب المعلومات، يقولون إنك مررت بتجربة مشابهة واستطعت حل الأعراض الغريبة التي أصابت أخاك إذا لم أكن مخطئاً.

بعد أن أنهى الرجل جملته، شعرت بتوهج جميل داخلي، لا أعلم لماذا رددت عليه بطريقة جافة:

لن أجرى أي مقابلة، الناس لا تصدق، لا أريد أن أصبح أضحوكة، يكفي ما جرى في السابق؟

أعاد طلبه مجدداً، لكن كل محاولاته باءت بالفشل، لا أخفي أن هناك فضولاً بداخلي كالغول الذي يريد الخروج، يريد معرفة ما حدث لتلك الفتيات وسبب وضعهن الذي حدث لهن.

عاد الصحفي أدراجه، بعد خيبة آماله في إجراء المقابلة، التي يريد أن يفك شيفرات ألغاز متلازمة شجرة التوت، أحببت أن أسميها بطريقتي الخاصة..

وقتها كنت أقف عند باب المنزل بصدد الدخول، عندها سمعت صوتا آخر:

أخ حسين، التفت حولي لأجد شاباً بملامح جميلة وهادئة، طويل القامة وجسمه امتلأ بالعضلات التي برزت من تحت ملابسه، يقف عند الباب الخارجي..

معقولة أصبحت مشهوراً بهذه السرعة والكل بدأ يعرف اسمي، أحدِّث نفسي متمتماً بعصبية..

نعم، هل أنت صحفي آخر؟

- لا، لا، لست صحفياً، أتمنى أن آخذ من وقتك دقائق، نظرت إليه مجدداً،

قلت له بعصبية:

- ماذا؟

- هل الأمر مرتبط بطالبات كلية التربية الأساسية أيضاَ؟

نظر بطريقة سريعة فور انتهائي من جملتي قائلا:

- نعم الأمر مرتبط بذلك.

- سامحني لا أستطيع مساعدتك بشيء.

اعتذرت منه محاولاً الدخول.

مد يده يريد إمساك كتفي..

- أرجوك الأمر في غاية الأهمية..

إحدى الفتيات المصابات إنسانة مهمة بالنسبة لي..

لم أكترث له كثيراً..

- أريد فقط الدخول..

ويردد...

- موعد زواجنا بعد أسبوعين، لم أجد أي سبيل لإيجاد حل لحالتها..

هنا توقفت، ولا أعرف لماذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المنزل

- تفضل اشرب قهوتك..

ونحن جالسان في الصالة، قال:

- اسمها خلود، خطيبتي التي من المقرر قيام حفل زواجنا بعد أسبوعين، لكن شاءت الظروف أن تصاب بذلك المرض..

قاطعته:

- هل تقصد «متلازمة شجرة التوت»؟

رد علي مستفهماً:

- ماذا تعني؟

قلت:

- ستفهم بعد قليل، احكي لي ما حدث بالضبط وبالتحديد قبل موعد إصابتها بالأعراض.

- حسناً حسناً..

على حسب ما أذكر أن خلود كانت مع صديقاتها، يتكلمن عن قصتك التي أصبحت متداولة، والليلة التي قضيتها في ذلك المنزل، خطيبتي كانت جداً مهتمة بالأمر وتريد معرفة هل ما ذكر حقيقة أم هي قصة مختلقة، لأنها تحب القصص المرتبطة بالأرواح واللعنات..

حرقة أشعر بها في قلبي، عندما يتحدث عن تلك الليلة؟

قالت لي إحدى زميلاتها، خلود والبنات الباقيات قررن زيارة البيت الذي حصلت فيه الأحداث بيوم الإثنين على ما أعتقد، وقمن بزيارته قبل الغروب بساعات قليلة، بعدها اكتشف الناس أن كل الفتيات ممددات أمام المنزل، وأصبحت عليهن تلك الأعراض.

نظرت إليه بعد انتهائه من حديثه وقلت:

- كما حدث لأخي بالضبط..

رد متحمسا:

- إذاً الحلول لديك..

قلت له:

- كانت مجرد صدفة، ومغامرة كادت تقضي على مستقبلي..

- إنها لعنة شجرة التوت تعود مجدداً..

صدقني لا أملك أي سبيل لمساعدتك، هناك أشجار في المنزل المزعوم حاول قطعها وربما تعود خطيبتك إلى وضعها الطبيعي، هذا كل ما فعلته في البيت..

أعاد النظر إلي وكأن عينيه تقولان هل ستدخل معي ذلك البيت، هنا وقفت بسرعة كعلامة على إنهاء الحديث..

- سامحني، الأمر مرتبط بكما، لا أملك أي سبيل لمساعدتك..

نهض المسكين، وهو يجر خيبات الأمل، كنت أنظر إليه بطرف عيني، هناك شيء بداخلي يريدني أن أساعده، بينما أمر آخر يرفض ذلك..

رجعت إلى غرفتي أنظر من نافذتي التي أتنفس منها، أراقب روتيني اليومي، جارنا ذو الكرش المنفوخ، والأخر المعقد راكن السيارات، وذلك الرجل الذي يقف دائماً أمام البيت كأنه مصنع من الدخان البشري ذي الشعر الطويل المتدلي على كتفيه، بالوقت نفسه أتذكر العاشق الذي أتاني قبل ساعة يطلب العون مني، كلماته عن عشيقته وقصة الحب التي امتدت لمدة خمس سنوات والمعاناة التي عاناها كل منهما بسبب اختلاف مذهبهما، وبعد كل الأهوال والتعب يحصل أمر يقف كالحاجز المرير بين إرتباطهما الأبدي، كان يتحدث بشغف وخوف بنفس الوقت، أشفقت عليه كثيراً، أعتقد لو أنني أبديت تعاطفي معه لبكى وهو يحتضنني، هكذا هم العشاق يريدون الحديث لإخراج ما هو مكبوت، وهمومهم كالنواعي###) التي تأخذ الماء من ضفة وتسكبه بالضفة الأخرى، معاناتهم تتجدد، المهم قلب العاشق لا يتوقف عن حمل الهموم والمعاناة، كم كنت قاسياً معه ورفضت مساعدته، أعتقد أنه لن يفهم أي شيء من الذي بداخلي، قدري أن أكون وكيل تلك الأشياء الغامضة يا له من حظ عاثر.

مر ذلك اليوم سريعا، عاد الليل بألغازه، أتذكر كلام أحمد وتلك الصحيفة التي حملت أخبار عودة اللعنة، ذلك الشاب الذي جاء يطلب المساعدة، ويريد معرفة الحلول التي طبقتها بليلة شجرة التوت وأنقذت شقيقي أحمد..

وبينما أنا كذلك ومحاطا بظلام حجرتي، سمعت صوت مرش الماء يتدفق بقوة، صوت تساقطه على أرضية الحمام، أيقظت قرون الاستشعار بأذني، متأكد مما أسمع صوت رذاذ الماء، كدلالة على أن أحدهم يستحم..

تجاهلت ذلك الصوت، واضعاً برأسي أن من يستحم هو أحمد، كيف يفعلها بحمامي الخاص، لا أعتقد أن أحدهم يستحم، من الممكن أن يكون صنبور

الماء قد أصابه شيء جعله ينهمر بهذه الطريقة؟

نهضت من فراشي، والأسئلة تدور فوق رأسي، من الذي يفعلها، أبي أو أحمد، فالاثنان لهما طقوسهما بالاستحمام ولديهما حمامهما الخاص، من المؤكد أن هناك عطبا ما جعله يعمل من تلقاء نفسه..

كلما اقتربت من الباب، لا يزال صوت الماء يزداد، ومن دون أي تردد فتحته مباشرة، أمعنت النظر، كل شيء توقف فجأة دون سابق إنذار، لا ماء يتدفق والمرش مغلق، تفحصت الأرضية لعلي أجد قطرات الماء المتبقية بعد توقف صوت المرش؟

لا يوجد أي دليل على وجود شخص استحم منذ دقائق، الأرضية جافة تماماً؟

كيف ذلك، أنا متأكد من أصوات قطرات الماء المتساقطة؟

أعتقد أنني وصلت إلى مرحلة الجنون والأوهام..

شعرت ببعض من الخوف..

عدت أدراجي الى غرفتي، أريد إقناع نفسي بأن كل ما حدث مجرد وهم..

وقبل دخول الغرفة صدمني منظر آخر؟

أبي يجلس على سريري مطأطِئاً رأسه..

توقفت فجأة، ما الذي جلب أبي بهذه الساعة إلى غرفتي؟

فركت عيني بقوة، أكرر نظري مرة أخرى، أنا متأكد إنه والدي..

رفع رأسه، هذه ليست عيون والدي المعتادة، أعرف جيداً نظراته؟

لحظة أبي دائما يذهب الى فراشه مبكرا، والساعة كانت تشير إلى الثانية فجراً، موقف يثير علامات الاستغراب؟!

صباح الخير أبي، قلتها بتوجس، وأنا أراقب نظراته المريبة..

رد علي: صباح النور، ثم تحدث بغير طريقته المعتادة، أعتقد أنك كنت تستحم، فصوت انهمار الماء أيقظني.

لم أرد عليه، وبقيت صامتا، أبي ليس من ذلك النوع الذي يدقق على الأصوات؟

ثم راح ينظر إلي ولمعان عينيه ليس هو الذي أعرفه؟

ثم أردف قائلاً:

- هل كنت في حمامي قبل دقائق؟

قلت له مستغرباً:

- طبعا لا، من المستحيل أن أستحم في حمامك..

هز رأسه وهم واقفاً وقال:

- أعتقد وجود بعض التسريبات في الأنابيب الخاصة، سأذهب إلى الأسفل لأحضر العدة الخاصة، وأعرف أين موطن الخلل..

لم أنطق بكلمة واحدة، مستغربا.. هذه ليست عادة أبي؟!

أمر غريب حقاً؟!

خرج والدي من الغرفة متوجهاً إلى الباب الخارجي، وأثناء سيره كان يتلفت كثيراً وينظر إلي، حتى تأكدت من خروجه، بينما أنا انطلقت إلى غرفته الخاصة، أريد إجابات صريحة على تصرف أبي من أمي، التي من المؤكد أنها مستيقظة في هذا الوقت، لأنها تصحو معه ..

كان الباب مغلقاً، لم أهتم كثيراً، فتحته مباشرة من دون أن أطرق عليه كعادتي..

لتقفز عيناي من مكانهما بعد مشاهدتي لأبي نائماً، وصوت شخيره يصل إلى سقف الغرفة.

كيف ذلك قبل دقائق أبي خرج من البيت، يريد إحضار العدة، وقبلها كان جالسا في غرفتي على سريري، الآن وعندما صعدت وجدته نائماً، أكاد أجن، ما الذي يحدث؟

من ذلك الشخص الذي كان جالساً في غرفتي، جريت مسرعاً متوجهاً إلى الغرفة الخارجية التي يضع فيها أدوات التصليح، وعندما وصلت كانت مغلقة تماما بالقفل..

طرقت عليها لعل أبي موجود بالداخل، لم أجد أي إجابة، من المستحيل أن يصعد بهذه السرعة؟!

دخلت المنزل، وبينما أنا أريد العودة إلى حجرتي، سمعت صوت مرش الماء، قلت بنفسي هذه المرة من المستحيل أن يكون وهماً، وبسرعة كبيرة توجهت إلى الحمام، وعندما فتحت الباب لم أجد سوى الصمت، والذهول والصدمة، ما الذي يحدث؟

انطلقت مسرعاً إلى غرفتي، والرعشات تكاد تفتك بكل أنحاء جسدي..

والخوف يبني صروحاً كبيرة على سطح قلبي..

وعندما دخلت وجدت تلك الجملة المكتوبة على الحائط بخط أسود رديء

«الموعد قد اقترب التميمة السوداء»؟

وضعت يدي على رأسي، أدقق النظر بذلك الحائط، من هؤلاء الذين يراقبونني، ما تلك الأشياء التي تريد أن تفقدني عقلي؟

انطلقت خارج الغرفة محاولا إيقاظ أهلي، أريدهم أن يشاهدوا تلك الجملة التي خطت على حيطان غرفتي، أقترب من غرفة والدي وضعت يدي على المقبض، لكنني تراجعت في اللحظات الأخيرة، عدت أدراجي، وجلست على فراشي، نظرت إلى تلك الكلمات..

تذكرت ردود أفعالهم، كونهم يظنون أنني أعاني من مشاكل نفسية، وكل ما يحدث لي هو مجرد أوهام، لا أكثر..

فدسست جسمي في فراشي، محاولاً نسيان كل ما حدث، وبنفس الوقت لا أريد أن أعرف أي إجابة عن كل هذه الأمور، والأفكار تحاصرني من كل جانب، وعقلي يتدفق بالهواجس التي كادت تخرج من فتحات أنفاسي، أزفر بقوة، أنهض، أحسست بحاجة كبيرة إلى الصراخ، لأخرج كل الهموم التي أحكمت سيطرتها على نفسي.

في المقابل، تخرج تلك الدموع الحارة تلقائياً، تجري على خدي سالكة طريقها إلى الأسفل، بكيت يومها كثيرا، وهناك العديد من الأسئلة التي لم أجد لها إجابة، وبنفس الوقت أعلم جيداً أن متلازمة شجرة التوت بدأت تعود، وعلاماتها بدأت تظهر، بسبب تلك الظواهر الغريبة التي تحدث، كررت النظر للحائط أريد النظر لتلك الجملة، كالعادة اختفت وكأنها لم ترتسم على الحائط منذ دقائق.

تدور الأيام والمواقف الغريبة تتكرر كل يوم، في بيتي، تارة بالغرفة وتارة خارجها، اعتدت على تلك الأحداث، لكنني لم أفتح فمي وأتحدث أبداً، أعلم لو أنني تحدثت فلن يصدقني أحد، لأن كل تلك الظواهر تقصدني، ولا تريد أحداً غيري، أتجرع الخوف بمرارة كبيرة، وبداخلي العديد من الهموم أريد من خلالها التحدث، حتى جاءت تلك الليلة، وأخرجتني عن صمتي، وبالتحديد بذلك اليوم الذي كان فيه صوت بوق السيارة المتكرر بالخارج مزعجا يجعل النوم يهرب من عيني، تمنيت لو أقذفه بحذائي فأصيبه على رأسه كضربة ناجحة من رام ابتسمت له الصدفة، هذا اللعين لا يريد التوقف، الساعة الآن تشير إلى الواحدة فجراً، كل شيء حولي يستعد إلى الخلود للنوم وصوت البوق المتكرر قض مضاجعهم.

أفتح باب النافذة، أبحث عن مصدر الصوت اللعين في الخارج، همس الليل فقط يتطاير بالمكان، وذلك البوق اللعين قد توقف..

هل ينتظرني حتى أفتح النافذة ليكف؟

أعود إلى فراشي، محاولا استدراج بقايا النوم، يقفز لحظتها ذلك العاشق أمام عيني، كصوت ضمير يصرخ داخلي، أحاول طرده..

أتذكر تلك الأحداث التي حصلت في اليومين الماضيين، أجد نفسي نقطة البداية لكل الحوادث التي حدثت، والبحث عن حلول لتلك الألغاز، الرسالة الغامضة، الجملة التي كتبت على الحائط، والكوابيس التي تحاصرني من كل جانب.. أتقلب على الفراش كسمكة للتو خرجت من الماء.

أنظر إلى جانب الباب، أفكر ما هو اللغز الجديد الذي سيدخل حيز اللعبة، أحاول اختلاق أحلام يقظة، أكذب فيها على عقلي الباطن، حتى أرهقه لكي يشبع من كذبي، لتستسلم بعدها جفوني للنوم.

بقايا نور الشارع تتسلل عبر فتحات النافذة لتقف على الحائط الذي أمامي راسمة بعض الخيالات، أركز نظري فقط عليها، بعدما جفا عيني النوم.

حتى سمعت تلك الطرقات، تك تك من ناحية النافذة، في البداية ظننت أنها وهمٌ جديد، تداركت الموقف، عاد الطرق من جديد كأن أحدهم يضرب بمفاتيح سيارته على زجاج النافذة، هل عادت الأشياء الغريبة، وما مصيري القادم.. تكررت الطرقات كثيراً، وأنا مستلقٍ بفراشي متردداً بالنهوض، عادت أطرافي ترتعش، وفضولي يكاد يقتلني، أريدً معرفة من الفاعل؟

تسلحت ببعض الشجاعة التي تتدخل دائماً في اللحظات الحرجة، تقدمت نحو النافذة بخطوات بطيئة، أزحت الستارة بهدوء، وخوفي يتدفق بقوة نحوي يدي، لا أريد فتح النافذة ذلك ما يقوله قلبي، بينما عقلي وفضولي يجراني جراً نحوها، أريد نهاية لتلك الأشياء التي تزورني كل ليلة، والصوت لا يزال يدق على زجاج النافذة..

وضعت يدي على مقبض النافذة قمت بسحبها بهدوء شديد، توقف الطرق، بدأت النسائم الباردة تتدفق عبرها، والليل يلقي بستاره الأسود خلفها، حتى الآن لا يوجد ما يدعوك للخوف، شجاعتي تزداد كلما فتحت أكثر ولم أجد ما يهيج انفعالاتي، وفجأة تجمدت أطرافي، توقف الدم بعروقي، قفزت عيناي من مكانهما..

لا أعرف ماذا أقول، وما الطريقة التي أشرح فيها ما رأيت، امرأة بشعر متجعد ومنكوش، منثور على أكتافها، وجه شاحب يملؤه البياض وعيون أحاطها السواد من كل جانب تنظر لي بهدوء، مرتديةٍ ذلك الثوب الأسود الذي

غطى كل جسمها، واقفة في الهواء يتخيل لك أنها لا تقف على قدميها، ابتلعت الصدمة، بينما هي كانت تنظر إلي بابتسامة ماكرة ونظرة حادة، وتردد:

- موعدنا الثلاثاء القادم في بيت العجوز، هناك من ينتظرك، لا بد من إتمام الطقوس!

ثم صمتت وعادت لنظراتها المريبة، وأنا واقف عند النافذة أنظر وأشعر بذلك الرعب الذي غطى كل قطعة جلد من جسدي، وكما هي ردة الفعل العادية في مثل تلك المواقف، صرخت بشدة بصوت عالٍ وأنا أتراجع للوراء، ومن دون شعور سقطت على الأرض مغمى علي.

ولم أستيقظ إلا على تمتمات أمي التي كانت بجانب رأسي تقرأ بعض السور القرآنية، وأبي الذي يتحسس جبهتي، وخلفهما شقيقي أحمد ينظر لي والتساؤلات تقفز من وجهه، أدرت رأسي بسرعة ناحية النافذة التي كانت شبه مغلقة والستارة فقط تتحرك من الهواء الخارجي، وبانت على عيني ملامح الخوف، وقلت بعد أن أشرت بإصبعي:

- كانت هناك تقف خلف النافذة..

نظر والدي للجميع وهو يتساءل:

- من التي كانت تقف خلف النافذة؟

قلت له بعد أن هممت بالنهوض:

- امرأة ذات شعر غير مرتب ووجه جامد، لا أعلم هل هي جنية أو بشرية، كانت تنظر لي، لقد طرقت على النافذة..

صمت الجميع بعد انتهاء جملتي وهم ينظرون إلي باستغراب..

وقطع حديث أبي ذلك الصمت:

- حالتك يا حسين تزداد تدهورا، لماذا لا تستمع لكلامي..

ثم راح يتكلم بعصبية زائدة..

- ما زلت تتحدث عن تلك الأمور الغريبة.. الجنية والوهم الذي جعلنا أضحوكة للناس.. ثم ترك الحجرة ورحل.. ويتمتم.

- هذا الولد سيجعلني أفقد عقلي يوماً ما، لا بد من إقناعه بالذهاب إلى طبيب نفسي حتى نعرض عليه حالته، لا أعلم ما سأقول للناس هل ولدي مجنون؟!

وراحت أمي تبكي وتقول:

- لا يوجد أي تفسير، إنها عين وأصابتك، لا أعلم على ماذا يحسدوننا، سأبحث لك عن شيخ أو عالم دين يعالجك، ارتاح يا ولدي حاول أن تقرأ بعض الأدعية قبل النوم، أو ضع القرآن تحت وسادتك، ثم راحت تكمل جزئية بكائها..

وقف أحمد ينظر بهدوء.. فبادرته بالحديث:

- أحمد صدقني كل ما رأيته حقيقيا.

وشرحت له تلك الأحداث التي حصلت في الأيام الماضية، هز رأسه من دون أن ينطق بكلمة..

وأكملت:

- أحمد هل تعتقد أن لعنة شجرة التوت قد عادت، من الذي يقصدونه بالموعد المنتظر، يطلبون مني الذهاب إلى بيت العجوز في ذلك اليوم.

استمر أحمد في صمته، وكأنه اصطف بجانب أبي وأمي والناس، لا يا أحمد أنت من تبقَّى لي، أرجوك صدقني كل ما حدث حقيقي، أحتاج إليك كثيراً فيما تبقى، لا أستطيع مجابهة تلك الأحداث وحدي.

قال أحمد:

- لن أتركك وحدك تحتاج فقط الى الراحة، انسَ ما حدث بتلك الليلة، ثم استدار خارجاً من الغرفة..

تركوني جميعاً ورحلوا، لم يتبق معي سوى نفسي، لا أريدهم دعهم يرحلون..

لا أعلم لماذا أقرب الناس هم أفضلهم بجرح المشاعر وذبح الكبرياء، بل يزيدون ذلك الشرخ الذي أحدثوه بفهمهم الخاطئ اتساعاً، ويهدمون كل جدران الثقة التي بنيتها لهم، بظنونهم ونياتهم السوداء، وقت حاجتك إليهم يتظاهرون لك بمد يدهم، وهم في الأساس يمدون كفاً بلا أصابع.

ذلك اليوم كنت جالساً في صالة المنزل، ماسكاً بيدي جهاز التحكم الخاص بالتلفزيون، أقلب تلك المحطات، لم أكن أريد محطة معينة، بل كنت أدور ما بين تلك القنوات، التي لم أستفد منها يوماً بمعلومة واحدة، لا أعلم لماذا كنت أعتقد أن حل مشاكلي محصورة وسط هذه الفضائيات، حتى قالت تلك المذيعة:

- لقاؤنا اليوم مع الأستاذ..... المتخصص بالبرمجة العصبية.

قطع دخول والدي حبل أفكاري ودليلي بين القنوات، واقترب مني، لكن هذه المرة ليست بطريقته الهجومية وبنظراته المتوجسة، بل دخل علي بابتسامة

رسمها على وجهه، وبدأ يتحدث بطريقة مختلفة، كأنه يتعامل مع طفل عنيد يخاف صرخاته بأي لحظة.

جلس على الكرسي المقابل لي، ورمقني بعينه التي أحسستني بدفء عينيه بالسابق، ليبادرني بتلك الكلمات التي ملأت المكان بموجات إيجابية تدفقت بسرعة كبيرة نحو صدورنا:

- ولدي، أنا أعلم أنك لا تعاني من أي حالة نفسية، ومتأكد أنك تملك عقلاً راجحاً، وأحاسيس فياضة، وقلباً مليئاً بالعاطفة والحب..

حسين.. أنت أكبر أبنائي، بل أقربهم إلى قلبي، لا بد أن تعود الى حالتك الطبيعية.

نظرت اليه بحدة بعد أن أنهى جملته الأخيرة وقلت:

- وهل أنا بحالة أخرى، للتو كنت تقول إنني لا أمر بأي حالة نفسية؟

شعرت بارتباكه، ليتدارك الموقف قائلاً:

- هل الحالة النفسية معناها أنك مريض، كلنا نمر بظروف تجعلنا في حالة مرضية، والتي لا بد من علاجها..

أتذكر حالة والدتك عند إصابة أخيك بذلك المرض، هل هذا يعني أنها مجنونة، لقد عرضناها على العديد من الأطباء وقتها..

- أبي ما الذي تريد أن تصل إليه.. قلتها بعصبية.

صمت قليلاً، ثم قال:

- الأمر مرهون بك، لا بد من عرضك على طبيب نفسي..

الغضب بدأ يتدفق بعروقي حتى شعرت به يخرج من قمة رأسي.

أنا لست بحالة تستدعي ذهابي إلى أي طبيب، كل ما أحتاج اليه قلوبكم، ومشاعركم التي فقدتها منذ تلك الحادثة..

قاطعني:

- تقصد تلك الليلة التي عدت بها وأنت ملطخ بالتراب وملابسك ممزقة، وتدعي أنك أبطلت اللعنة التي أصابت أحمد؟

قلت له:

- نعم، أنا متأكد، اذهب إلى البيت لترى بنفسك تلك الأشجار المقطوعة..

ألم تكفِك شهادة العجوز صاحب البيت، الذي دائما ما كان يقول لك تلك الحكاية؟

- أتقصد ذلك العجوز الغريب؟ قالها مستخفاً بكلامي..

ثم أكمل:

- ذلك الرجل معروف في الشارع والمنطقة بأنه يعاني من حالة نفسية غريبة، وهل تعلم أنه الآن يعالج بالطب النفسي؟!

أبي صدقني كل ما حدث حقيقي، أخي أحمد لم يرجع الى طبيعته، إلا بعد ما قطعت الشجرة وأبطلت اللعنة التي أصابته.

قال وهو يسخر من كلامي:

- عدنا إلى أسطوانة اللعنة، وأكمل هناك طبيب جيد دلني عليه أحد الأصدقاء..

وقفت كعلامة على إنهاء الحديث وقلت:

- أبي لن أذهب إلى أي طبيب نفسي، واللعنة الآن تعود مجدداً، اقرأ الصحف التي تتكلم عن تلك الحالة التي أصابت فتيات كلية التربية الأساسية.

هزه يده مستهزئاً بكلامي..

- عاد مرة أخرى يحكي لنا عن تلك الخرافات التي لا أساس لها بالواقع، يكفي ما تتناقله الناس عنك، لا بد من تغيير تلك الصورة..

كل حين يغرس ذلك الخنجر داخل صدري، كلماته الودودة في البداية أصبحت كالملح الذي يرش على جرح جديد..

أعتذر أبي.. مضطر للذهاب إلى غرفتي، إذا كان وجودي يسبب لك مشاكل ويهز مكانتك الاجتماعية، فأنا مستعد للرحيل وأعيش بعيداً عنك..

وقف بعد أن رمقني بنظرته الحادة التي كانت ترعبني في صغري، وتجعلني أنفذ طلباته من دون أي نقاش، لكن هذه المرة الوضع يختلف، ثم نهض بسرعة وترك المكان وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

وضعت جهاز التحكم الذي كان طوال محادثتي مع أبي وسط كفي، على الكرسي بجانبي، وصوت التلفزيون يصدح بالمكان، وكان مدرب البرمجة العصبية يتحدث بتلك الجملة:

- جسم الإنسان كالمغناطيس، يجذب نحوه كل ما يفكر فيه، أي إذا واجهتنا مشكلة واعتقدنا أنها لن تحل، فنحن جذبنا طاقة سلبية من الممكن أن تعقِّد الموضوع، والعكس صحيح.

وآخر جملة سمعتها قبل أن أضع جهاز التحكم على الطاولة:

- أفضل طريقة لعلاج المشاكل هي مواجهتها لا الهروب منها.

مرت الأيام سريعة ويوم الثلاثاء بدأ يقترب كثيراً، كنت حائراً ما بين الذهاب إلى ذلك المنزل الملعون، أو الرحيل، القرار أصعب مما أتخيل، لكن لا يوجد أمامي سوى قرار الرحيل عنهم، لا أريدهم، فهم أيضا كتلك الأشياء يرعبونني بطرقهم البشرية الخاصة..

الساعة كانت هي من يقطع صمت الحجرة التي أقيم فيها، بتكتكتها البطيئة، أنظر لها وكانت تشير إلى الثامنة مساء من يوم الاثنين، وغداً هو الموعد المرتقب.. لا قرار الرحيل هو الحل، قفز ذلك الشاب وعشيقته لمخيلتي كأنهما بقايا ضمير حي يريد مساعدتهما، طردت الفكرة من رأسي لا يعنياني، المشكلة مشكلتهما، وبينما أنا كذلك والحيرة تكاد تقتلني أخذتني غفوة من دون شعور..

لأفيق على بقايا حرارة بسيطة تلفح وجنات وجهي، النوم الذي بدأ يبتعد رويداً رويداً عن جفن عيني، شعرت بشيء يلهث بجانبي، دققت النظر مجدداً، لتتسع حدقتا عيني بعد مشاهدتي لذلك الوجه الذي ظل يحملق بي بابتسامته الشريرة، كانت مستلقية على السرير بجواري، فقط تنظر بمكر، قفزت من فراشي حاولت الابتعاد عنها، الماكرة لا تزال تنظر فقط وتبتسم، عيناها الغائرتان وشعرها الطويل وجسمها الهلامي انعكست على الحائط بخيال مرعب، بدأت أصرخ بصوت عالٍ ظلت كما هي، بينما إضاءة الغرفة بدأت تنير وتنطفئ..

ثم قاطعتني:

- لن يسمعك أحد؟

موجة من الهواء انتشرت بالغرفة.

وأكملت:

- أنت الآن معزول عن العالم، شفرتنا هي «التميمة السوداء» هناك عند العتمة؟

بقيت صامتاً، أحاول التماسك، والرعشة التي هزت كل أطراف جسدي.

قلت لها بخوف:

- ماذا تعنين، هل أنتِ من كان يثير تلك الأشياء الغريبة في المنزل؟

قالت بمكر:

- نعم أنا من تمثلت لك بصورة أبيك في تلك الليلة، وأنا من كتب تلك الجملة على الحائط..

وأكملت:

- هي رسالة قصيرة لا بد من سماعها، بعد ساعة من الآن موعدك مع المارد «قزح» لإتمام طقوس تحويلك إلى ساحر، خلفاً لذلك العجوز الذي كان يسكن المنزل؟

بقيت صامتاً ومتفاجئاً.. تاهت الكلمات مني؟

رددت عليها مستفهما:

من أنتِ، وعن أي ساحر تتكلمين؟

راحت تدور في زوايا الحجرة بحركة سريعة ثم توقفت، وقالت:

- أنا إحدى الجنيات التي أسكن أشجار ذلك المنزل، جندني قزح لإخبارك بذلك.

قلت لها بغضب:

- ارحلي، ما تطلبينه مستحيل، ابتعدوا عني يكفي ما حصل منكم..

ابتسمت من جديد وقالت:

- إذن أنت تعلن الحرب، ولا تدرك مدى خطورة الأمر، هل تعلم ما النتائج التي ستحل بك في حال هروبك أو عدم انصياعك لطلبات ماردنا الكبير قزح، ستنتشر اللعنة على عائلتك فرداً فرداً، ستبقى فتيات الكلية على حالتهن، ستحدث أمور لن يتخيلها عقلك، لا تظن زوال اللعنة بقطع الأشجار، أنت تتعامل الآن مع مارد كبير يدعى قزح، لا يقف بوجهه أحد، الموافقة وإما حلول اللعنات المتوالية..

صرخت بصوت عالٍ:

- عن أي قزح تتكلمين؟ كل ذلك لا يعنيني أريد الهروب منكم..

عادت لتقول:

- أنت من أبطل اللعنات، أنت من تجاوز الحدود، وهناك أمور أخرى لا أعلمها هو من لديه الإجابات..

ازدادت موجة الريح بالغرفة، ثم فجأة اختفت تماماً، عاد كل شيء إلى مكانه بقيت صامتا، أنظر الى تلك الساعة التي كانت تقترب بسرعة من الموعد

المشؤوم.

لم أعد أرغب بالنظر من فتحة الشباك الصغير، أنفي الذي أتنفس منه وسط هذا العالم الغريب، شعرت للوهلة الأولى لو كان للبشر يد في التحكم بالأكسجين، لملؤوه بقوارير وباعوه للناس، وطبعا المسالمين أمثالي أو قليلي الحيلة سيكونون الحلقة الخاسرة، وبعدها حظوظهم في البقاء أحياء قليلة جداً.

أنظر إلى نافذتي من بعيد، وقطرات المطر تتزاحم على زجاجها، أعلم جيداً أن الجو بالخارج تفوح منه رائحة التراب التي دائما أتعطر منها وأشعر كأنني أستنشق نفسي من جديد، هذه المرة لا أريد العبث مع مخيّلتي الصغيرة، أريد شيئاً واحداً فقط هو الرحيل، بعد أن مللت من كل شيء لا أحد يفهم، كل شخص يريدني على مسطح تفكيره، أبي وأمي والأقارب والناس.. كلهم يريدونني على أهوائهم.

لا أعرف أين أذهب، أو إلى أين أسير، أنا لست من هؤلاء صانعي الصداقات والعلاقات الاجتماعية، المهم هو الخروج، هناك أشياء كثيرة تخنقني، حتى غرفتي الصغيرة تلفظني وكأنها تطلب مني الخروج، بعد عروض الخوف والرعب التي تقدمها لي بين حين وآخر.

أخرجت حقيبة صغيرة، جمعت بعض الملابس التي أحتاجها، دققت في محفظتي يوجد مبلغ يسير من المال، سأتدبر أموري فيه بالمرحلة المقبلة، وقفت فجأة وأنا أجمع ملابسي، هل ما أقوم به هي حالة من لفت الانتباه لي، لا، لا، مهما كانت النتائج، المهم أريد الخروج..

أحزم حقيبتي بقوة، وأجلس على حافة سريري، أفكر بشدة في كل ما حدث، هل بالفعل ستصيب أهلي تلك اللعنة، ما ذنبهم ليس لهم أي دخل بتلك الأشياء، لماذا العقاب الجماعي، ما ذنب تلك الفتيات، أمّا من ناحيتي لا يهم ما يحدث، فأنا إنسان محطم، ولا أعتقد أكثر من النحس الذي أعيش فيه بالوقت الحالي سيصيبني، اللعنات الكثيرة تحاصرني..

لا دخل لي بكل ذلك، لا بد من الرحيل، الصراع الذي بداخلي على أشده، أعلم جيدا أن تلك الأشياء لن تتركني في حالي، ستطاردني أينما ذهبت..

وضعت حقيبتي على كتفي، دائراً بعيني في أرجاء تلك الغرفة التي تحمّلتني طوال الفترة الماضية، وانطلقت مسرعاً محاولاً عدم الانتظار أكثر من ذلك، خوفاً من التراجع، دخلت إلى صالة بيتنا كانت هادئة تماماً لأن الجميع نيام في هذا الوقت، مضيت بطريقي، وما لفت نظري تلك الجريدة المطوية وكان يعتليها خبر في وسط الصفحة، يتحدث عن ظاهرة فتيات كلية التربية

الأساسية، أخذتها بيدي، قرأت الخبر بشكل سريع، كان محتواه واضحاً أنه لا يوجد أي أمل للشفاء، مع مناشدات أهالي الضحايا الذين يطلبون من أي شخص يستطيع المساعدة أو إعطاء أي معلومة لكي تحل مشكلة بناتهم.

رميت الجريدة على الطاولة متظاهراً بعدم اهتمامي، وسرت نحو الباب الخارجي، وعندما وضعت يدي على مقبض الباب، تذكرت أن من كان يقرأ الجريدة في هذا الوقت هو أبي، وهذا معناه اهتمامه بالموضوع كثيراً، كل المؤشرات التي تقافزت أمامي لم تثنني عن فكرتي بالرحيل، وإنهاء فترة العذاب النفسي.

وقفت أمام باب بيتنا، تاركاً قبلة صغيرة بوسطه كنوع من الوداع الصامت، قطرات الندى الهادئة تتساقط على أجسام السيارات بالخارج، مع نسمة هواء باردة تلفح الوجوه..

لا، لا، مستحيل، كأن الأقدار هي الأخرى تجر ملابسي ولا تريدني أن أنفذ مخططي، سيارة أبي تقف خلف سيارتي بالمواقف الخارجية، يا له من حظ عاثر، شعرت بضيق داخلي من كل ما حدث، أعرف جيداً أن أبي يضع مفاتيحه بالدرج الذي بجانب رأسه عند سريره، ودخولي إلى الغرفة سيوقظه بالتأكيد، العديد من العراقيل وقفت أمامي، وضعت رأسي على السيارة واليأس يكاد يقتلني..

كل الأقدار وقفت أمامي تمنعني من الرحيل..

هل من المعقول كل هذا يحدث بالصدفة؟

هناك من يدير تلك الأحداث من بعيد..

شعرت لحظتها بوقوف سيارة خلفي، لم أبالِ كثيرا بتلك الأصوات التي اعتدت على سماعها، إغلاق باب السيارة أكد لي أن هناك من يقترب..

أخ حسين، هل أنت بخير، قالها وهو واضع يده على كتفي؟

إنه ذلك الشاب ذو الجسم الرياضي، عاشق إحدى فتيات كلية التربية الأساسية اللاتي أصبن بلعنة متلازمة شجرة التوت، والذي جاء قبل ذلك يريد المساعدة لفك الشيفرات، لكنني خيّبت أمله، لماذا يعود مجدداً؟

نظرت إليه ببلاهة، لأول مرة لا أتعامل باحترام مع من يكلمني..

وكأنني أعرف ما يريد..

قاطعاً الشك باليقين وقائلاً:

- صدقني لا أستطيع مساعدتك بشيء، الأمر بيدك.

تفاجأ من ردة فعلي، قائلاً:

أنا أفقد السيطرة تماما، وأخسرها مع مرور كل يوم، موعد زواجي بعد ثلاثة أيام،

أريد حلاً لتلك المشكلة التعيسة التي برزت بوجهنا.

أتوسل إليك، ساعدني، لم يبق أمامي إلا أنت..

ثم جلس على ركبتيه، مطأطئاً رأسه للأرض..

ثم راح يبكي وهو ممسك بيدي، ويردد:

- مستعد أن أدفع المبلغ الذي تريد، مستعد لعمل أي شيء تريده، فقط ساعدني في أن ترجع خلود إلى حالتها الطبيعية، هي كل ما أملك، فعلت المستحيل من أجل الوصول إليها..

وراح ينحب بصوت عالٍ أسمع تنهداته تتكسر داخل صدره، سمعت عن العشق، لكنني لم أجربه، هل من المعقول أن يتخلى الإنسان عن جميع مبادئه مقابل رشفة حب، اختلطت دموعه بقطرات المطر التي بللت وجهينا، كنت أراقب الموقف بصمت، غير مبالٍ بانفعالاته الحزينة..

فقدت كل أحاسيسي، ولم أتعاطف مع ذلك العاشق الغارق بالحب ويبحث عن قشة لكي يتمسك بها..

قلت له إن الحل بقطع الأشجار التي أحاطت بيت العجوز، كل ما فعلته أنني قطعت الشجرة التي تسببت في لعنة أخي..

رفع رأسه قائلاً:

- مستعد لفعل ذلك، هل تذهب معي لتساعدني؟

لم أهتم لكلماته التي قالها، ورفضت عرضه، لا أعرف لماذا؟

في الحقيقة كذبت عليه..

لأنني أعلم جيداً أن اللعنة لن تزول بقطع الأشجار أبداً، وكل الأمور متوقفة على موافقتي وانضمامي إلى طاقم ذلك المارد «قزح».

لا أعرف لماذا كذبت على هذا المسكين، وما المصير الذي سيواجهه؟

قطع تلك الأفكار التي تغلغلت في رأسي قائلا:

- كل ما أريده هو الذهاب إلى ذلك المنزل الملعون، ودلني على الأشجار واترك الباقي علي مستعد أن أجتثها من عروقها..

نظرت إليه وبدأ الدم يتصاعد إلى رأسي وقلت:

- لا معنى لوجودي معك، اذهب وحدك، فالأمر يخصك لا يخصني..

كلامي الحاد جعله يصمت قليلاً، ويقف ماسحاً تلك الدموع والأمطار التي امتزجت على خديه، ولم يتكلم أي كلمة، وتركني وذهب..

يا لي من وقح كبير، زدت جروحه التي ملأت قلبه، بعدما نهرته، يكفي الحيرة والعذاب والخوف، كل تلك الأشياء التي تحاصره من كل جانب، وأنا أكملها بأسلوبي الجاف معه.

وقفت وسط الشارع، شارد الذهن، وكل ما أشعر فيه التصاق ملابسي على جسدي بعد أن زادت زخات المطر..

والصراع الداخلي بي يزداد، ما بين الهروب أو البقاء..

كل شيء مرّ كالشريط أمام عيني أمي، أبي، أشقائي، بنات الكلية، العاشق، الجنية، وآخرهم قزح، والموعد الذي لم يتبق عليه سوى سويعات قليلة، هل يعود الإنسان من جديد بداخلي أم أبقى واضعا ضميري بزنزانته دون اكتراث، أو أجد الحل بالهروب تاركاً ورائي ضحايا جُدد؟

لا أدري لماذا قفز ذلك الاستشاري الذي ظهر فجأة بالتلفزيون تلك الليلة وهو يردد تلك الجملة التي بقيت ملتصقة بذهني «الحل الوحيد لحل أي مشكلة ليس الهروب منها بل مواجهتها».

حملت الحقيبة مرة أخرى ووضعتها على كتفي، أي أحاسيس جديدة انتشرت بصدري، عدت أدراجي إلى البيت، ومسحت بقايا القبلة التي وضعتها على الباب قبل خروجي.

بقر البطن، أو الانتحار على الطريقة اليابانية القديمة، وهي عادة يتخذها اليابانيون عندما يقررون التخلص من النفس، بسبب الخيانة أو الهزيمة أو الفشل في المهمة أو الحياة، وأنا أرى نفسي قد فشلت في مهمتي بتلك الحياة، وقررت بقر بطني، بطريقتي الخاصة، التي قد أعددت العدة من أجل تنفيذها، وإلقاء نفسي من أعلى جسر الحياة في بحر قزح العميق.

أقف هذه المرة في المكان الذي وقفت فيه قبل شهر، وزخات المطر تنهمر علي بقوة، خلف منزل العجوز، أراقب ذلك السور، الذي قفزته بتلك الليلة، وصوت الرعد كموسيقى تصويرية يقصف رأسي، وومضات البرق تتخلل تلك الأشجار التي اصطفت بكل ثقة خلف تلك الأسوار، الطين الذي التصق بقدميّ، وامتزاجه بالماء يؤكدان تقدمي في كل خطوة أخطوها نحو الباب.

لم أشعر بالخوف هذه المرة، كنت أسير بثقة تامة دافعاً الباب الصغير الذي لم يكن مغلقاً، وأعلم جيداً أن المنزل مهجور بعد رحيل العجوزين، لا تسكنه إلا تلك الأشياء التي يترأسها ما يدعى قزح، المكان مثلما تركته في المرة الأخيرة، الأشجار تقف صفاً واحداً، وحفيفها ينتشر في أرجاء الحديقة التي تحمل بداخلها العديد من القصص.

تقدمت خطوة خطوة أسير على ذلك الممر المهمل وبعض بقايا الأغصان ملقاة عليه، كنت متحفزا لكل ردة فعل ستواجهني، وهنا رأيت ذلك الشيء، توقفت أدقق النظر، نعم إنه رجل، لا، لا أعتقد إنه قزح..

شخص يجلس على الكرسي حانيا رأسه إلى الأرض، بقيت صامتاً لدقائق..

قطع ذلك المشهد صوته قائلاً: اقترب كنت في انتظارك..

تقدمت نحوه بشجاعة يشوبها الخوف، وقلت:

- قزح.. بصوت متقطع؟

رفع رأسه، وتدلت خصلات شعره على كتفه، ثم وقف وابتسم:

- لا لست بالمارد قزح، أنا خادمك المطيع شاهر..

يا إلهي منذ متى أصبحت سيداً ولدي خدم وحشم؟

قاطعني قائلاً: «التميمة السوداء»؟!

فوجئت.. أعرف هذه الجملة، ثم مد يده إلى جيبه وأخرج شيئا كالقلادة يتدلى من آخرها قطعة سوداء مثلثة الشكل..

وأكمل:

- ارتديها عندما تنتهي من الطقوس، هي تميمتك ومفتاحك للدخول إلى عالم قزح..

ثم نهض وهو يقول:

- سأنتظرك بالخارج عندما تنتهي..

قاطعته قائلاً:

- لحظة من أنت، هل أنت من الجن مثلهم؟

رد بهدوء تام:

- أنا خادمك المطيع شاهر من البشر..

وراح يسير نحو البوابة، وبينما هو كذلك أخرج من جيبه علبة صغيرة للسجائر وأخذه إحداها ووضعها في فمه.

نعم، تذكرت هذا الرجل، إنني أعرفه، هو ذلك الذي كان يقف دائماً أمام منزلي ويدخن السيجارة تلو الأخرى، أنه مصنع الدخان؟!

بقيت واقفاً ومتجرعاً تلك المفاجأة غير المتوقعة..

بحر المفاجآت المتلاطم في هذا البيت لا ينتهي، ذاك نافث السجائر الذي يقف دائما أمام بيتي كان يراقبني طوال الوقت، وأنا المسكين كنت أظنه أحد ساكني الشارع الجدد، تدور الأحداث سريعة برأسي أحاول تفنيدها وأعجز عن ذلك في نفس الوقت، الاستسلام والهروب هما الحربة ذات الرأسين اللتين إحداهما ستغرس بخاصرتي الليلة..

أدور في المكان بحركة بطيئة..

وقعت عيناي على تلك الشجرة الصغيرة التي قطعتها، بجانبها شجرة الجنية التي لم يبق منها سوى جذعها، درت بعيني حول المكان فلم أجد أي شيء يلفت الانتباه، سوى..

ارتطام قطرات المطر بالأرض..

هنا..

صرخت بصوتٍ عالٍ:

- قـــــزح..

رددت مرة أخرى:

- قـــــزح..

لم تكن هناك أي إجابة..

- لقد جئت في الموعد الذي طلبت واضعاً نفسي تحت امرتك..

أتنفس بشدة، لم أشعر إلا ودموعي تتساقط على خديّ، إنها مرحلة اليأس الكبرى، سقوط مبادئ الإنسان أمام ناظريه وهو لا يستطيع فعل شيء، أجُرُ خطواتي جراً كالمحكوم عليه بالإعدام..

مرت دقائق كانت أشبه بأحلام اليقظة، همهمات أصوات بكاء، نحيب، هل هي لوثة عقلية أصابتني؟

لحظة..

الطين الذي التصق بقدمي أثناء دخولي الحديقة، هذه المرة يلطخ يدي، ملابسي امتلأت بتلك البقع اللزجة، أتحسس وجهي الذي اختلط بالطين والماء..

ماذا؟!

إنها حفرة مستطيلة على شكل قبر موجودة بجانبي، وأمام شجرة التوت المقطوعة، كيف حصل هذا، ومن حفر تلك الحفرة، وأنا جاثم على ركبتي بجانبها، ألتفت يميناً ويساراً..

هناك لمعان عيون تنظر من سيقان تلك الأشجار التي حولي وتختفي فجأة..

من هؤلاء.. وجوه كثيرة امتلأ بها ذلك القبر..

فقط رؤوس بلا أجسام؟!

لحظة، أتذكر ذلك المنظر، إنه الحلم، هي نفسها الوجوه التي ظهرت لي بذلك الكابوس عندما كنت أنظر إلى تلك الحفرة، ما بين باكية ومبتسمة، وخائفة، ومصدومة، الانفعالات كثيرة بتلك الحفرة..

هل من المعقول أنا من حفرها، الطين الذي ملأ يدي يؤكد لي أنني أنا من فعل ذلك

ليقطع ذلك الصوت البشع، الهدوء الممتزج بوقع المطر الغزير على الأرض

قائلا:

أنت من حفرت تلك الحفرة قبل دقائق، وأنا على يقين من أنك ستأتي بالموعد المحدد، لتتم طقوس تحويلك إلى ساحر قزح، خليفة لذلك العجوز الذي تركنا وهرب..

لا أعلم من أين يأتي الصوت أو من أي مكان يصدر، كنت ألتفت بحركة سريعة دائرا برأسي حول المكان، بنفس الوقت أتراجع محاولاً الابتعاد عن تلك الحفرة..

وحقيقة لم آتِ إلى هنا من أجل قزح أو إتمام الطقوس، جئت إلى هذا المكان كما جئت أول مرة متأملاً تدخل الصدفة، التي أنقذتني من تلك الجنية، أريدها أن تعود مجدداً، أريد وقوف الأقدار إلى جانبي، وإنقاذ تلك الأرواح التي ارتبطت بي في الخارج.

رددت عليه متظاهراً بعدم الخوف:

- لماذا اخترتني لهذه المهمة، ما الشروط التي تنطبق علي كما قال لي رسولك شاهر؟

شعرت بالصوت يصدر من تلك الشجرة العملاقة التي تنتصب متفرعة الأغصان قائلا:

- أنا لم أخترك لتلك المهمة، هما أمران جعلاك تكون وكيلنا على البشر، العجوز البائس، وتعديك على حدودنا..

هممت واقفاً بسرعة كبيرة، أريد استيعاب ما يقول قزح، ما دخل العجوز بهذه الأشياء التي تتكلم عنها؟

أنفاسه المتقطعة كصوت شخير يخرج من الصدر تسبق جملته قائلاً:

- انظر إلى ذلك القبر، ستجد صندوقاً صغيراً سيجيبك على هذا السؤال..

نظرت فوجدت ذلك الصندوق الحديدي، مددت يدي إليه بعد أن غابت تلك الوجوه، وفتحته لأجد كتاباً قديماً جدا تآكلت أطرافه..

رفعت رأسي، التفت يميناً ويساراً، ثم قلت:

- لا أجد بداخله إلا ذلك الكتاب..

قال لي:

- افتحه واقرأ أول صفحة..

نظرت لأول صفحة في الكتاب، لأجد تلك الجملة الصغيرة التي توسطت الصفحة، خليفتي من بعدي اسمه «حسين بن سمية»..

بهرتني تلك الجملة، الاسم الموجود اسمي، يلحقه اسم والدتي، وقلت له مستفسراً:

- هل تعني أن تلك الجملة تعنيني؟

قال بثقة:

- نعم، العجوز هو من كتب الجملة، ووضعها بالكتاب، وهي عادة يقوم بها أي ساحر يعلن تقاعده أو يشعر أن نهايته قد اقتربت، طقوسنا وقواعيننا متمثلة في كتابة اسم الشخص الذي سيخلفه، ويختاره على الأقل قبل سنة، ويكتبه في ذلك الكتاب الذي بين يديك، وطبعا هناك شروط أخرى لن تعلمها إلا بعد أن تتم الطقوس التي سأطلب منك تنفيذها بعد قليل، ناهيك عن إبطالك لمفعول اللعنة التي أصيب بها الجنية والعجوز قبل شهر، وقبل أن أنسى، هناك شرط واضح يؤكد أنك الأصلح لتكون ساحرا، انكشاف صورة الجنية

أمامك في تلك الليلة هو دليل واضح أيضاَ، لأن أجسامنا لا تنكشف للناس العاديين.

لم أعلق، ابتلعت الصدمة بهدوء، وأردد بداخلي لماذا ذلك العجوز يفعل هكذا؟ لماذا وضع اسمي بتلك الكتب الملعونة.

وبينما أنا كذلك، فجأة..

تدلّى غصنان من أعلى الأشجار يزحفان كالثعبان ليلتفا على قدميّ، وينطلق آخران أيضا ويلتفا على معصميّ، تم تكبيلي بالكامل، من أعلى إلى أسفل، تكورت بتلك الحركة الجنينية مرة أخرى، لترفعني تلك الأغصان إلى أعلى وترميني بذلك القبر،

بدأت أصرخ بأعلى صوتي وأردد:

- ماذا يحدث يا قزح؟!

سمعت صوت ضحكاته العالية دويها يضج بها المكان..

- لا تخف هي الطقوس، أرواحنا الموجودة بتلك الأشجار، تتسرب الآن لداخل جسدك، إنها البداية فقط، ما هي إلا دقائق ونبدأ في الشق الثاني من الطقوس..

فجأة ابتعدت تلك الأغصان عن قدمي ومعصمي، وامتدت إلى أعلى تلك الشجرة الضخمة، لتنقطع تاركة جروحا على الأماكن التي التفت حولها.

حاولت النهوض، والخروج من تلك الحفرة، وجدت صعوبة بالغة..

الهمهمات، ودوي الأصوات البعيد والقريب، بكاء، نحيب يعودان مرة أخرى..

أجد نفسي هذه المرة خارج تلك الحفرة، بجانبي فأس صغيرة، مع مخلوقات لأول مرة أراهم بحياتي، فزعت منهم وتراجعت، أقزام لا يتعدون ركبتي، أجسامهم مليئة بالشعر، لا أرى سوى لمعان أعينهم من بينها، كانوا ثلاثة، وبيد أحدهم الكتاب الذي رأيته بالحفرة..

ليتكلم أحدهم بصوت كأنه يتحدث من أنفه:

- هل ترى ذلك الآدمي، هو من قطع الشجرة..

رد الثاني بنفس الصوت:

- يعني هو المجرم الذي قتل أمي بذلك الفأس..

بينما الثالث كان يبكي بصوت عالٍ:

حتى أصبح الثلاثة يتقافزون أمامي..

وصراخهم أصابني بالهلع مع ارتجاف أطرافي..

توقفوا فجأة ليتقدم أحدهم ناحيتي، تراجعت لحظتها محاولاً الابتعاد، ليقول بصوته الأنفي:

- لن نرتاح حتى تنتهي..

بعدها مد الكتاب ناحيتي..

مددت يدي بحذر شديد ناحيته لأخذه منه..

عاد صوت قزح الخشن من جديد قائلا:

- قبل أن تبدأ في قراءة تلك الكلمات الموجودة في الصفحة الثانية من الكتاب، أريد إخبارك بقصة ذلك العجوز..

رددت عليه:

- وما شأني بذلك؟ الأمر يعنيكم أنتم؟

رد علي وشعرت من صوته بأنه غاضب:

- لا الأمر يعنيك، لا بد من معرفة كيف أصبح ذلك العجوز ساحراً، وكيف وصل إلى ذلك الكتاب الذي بين يديك، لأنه أحد الطقوس التي تقوم بها الآن..

صمت قليلاً واضعاً الكتاب وسط يدي, التفت يميناً ويساراً، أبحث عن الصدفة التي أنتظر، لفك كل الألغاز التي أحاطتني..

ثم قال:

- اذهب إلى ذلك القبر الصغير، ستجد شيئاً ينتظرك، تقدمت نحوه بهدوء..

ما هذا أي مفاجآت تنتظرني؟! ولد صغير ممدداً داخل الحفرة ومغطى بلباس أبيض كأنه جثة هامدة؟

قاطعنا قزح قائلاً:

- لن يشعر بك أو يسمعك، إنها جثة ذلك الطفل الذي بسببه بدأت كل هذه الأحداث..

إنه ولد العجوز الذي أسقطه أحد أبناء الجنية وبعدها مات، والذي بسببه انقلبت الأمور رأساً على عقب..

وأكمل:

- قبل مجيء ذلك الولد وقبل ارتباط العجوزين ببعضهم بعضاً، وبالتحديد سنة 1978، كان العجوز شاباً طموحا يبلغ من العمر 25 عاماً، يبحث عن تلك الفرص التي تتيح له الانطلاق في هذه الحياة، ومختصاً بالأمور التجارية، وكان وحيد والدته، بعد أن ورث العجوز عن والده مبلغاً بسيطاً وصغيراً أراد من خلاله إقامة مشروع صغير، إلا أن الأقدار وقفت حائلاً دون إتمام المشروع، وفشل فشلاً ذريعاً خسر فيه كل أمواله التي ورثها عن والده..

لم ييأس، بل كرر المحاولة مرة أخرى بمشروع آخر، الفشل أيضاً دمر كل طموحاته، ليحاول ثالثة ورابعة، أحس باليأس الشديد الذي أحاطه من كل جانب، وسقط يندب حظه، فكر في العمل من أجل كسب قوت يومه، عاد النحس مجدداً إلى حياته ليفشل مرة أخرى ويُفصل من عمله، تكررت المحاولات دون جدوى، كل الدروب مسدودة بوجهه ولا يعرف ما السبيل، حتى عمل في وظيفة ذات راتب بالكاد يسد فيه احتياجاته الخاصة، ومن خلاله تعرف على امرأه تكبره بأكثر من 8 سنوات، لم تكن لديها أي أسلحة خاصة تجذب فيها الرجال ذات جمال محدود، وسلاحها الوحيد هو السحر الذي أسرته فيه.

اقترب منها كثيراً، شعر أنها الإنسانة الوحيدة التي تفهمه في الحياة، ولم يفكر للحظة واحدة أن تكون هي شريكة حياته المقبلة، نظراً للفارق الكبير بالسن بينهما، لكن أعمالنا أغشته عن كل العيوب الموجودة، واقترب منها كثيرا حتى امتلأ قلبه من ناحيتها بالحب، جاء ذلك اليوم الذي طلب يدها للزواج وسط معارضة كبيرة من عائلته، وبالتحديد من والدته التي رفضت ذلك الارتباط غير المتوازن بين الاثنين..

الحب الذي صنعته بيدي وقذفته داخل قلب العجوز، بتلك التميمة السوداء التي وضعتها له داخل الكتاب التي تمكنت منه، ليرتبط بتلك المرأة التي كانت ضليعة بعلوم السحر، ولها ارتباطات قوية معنا نحن عالم الجن، وفي أول يوم زواج أهدته سناء، خاتماً ذا فص فيروزي، تمعن العجوز ليلة زواجه في ذلك الخاتم، واستغرب منه كثيرا!

سناء قاطعته، لا تخف هذا الخاتم سيفتح بوجهك تلك الأبواب المغلقة، ويحقق كل طموحاتك، في البداية لم يفهم العجوز كلام زوجته، ولبس الخاتم، معتبراً إياه هدية ثمينة من امرأة أحبها كثيراً، يومه الجميل الذي قضاه مع من يحب، دفع ثمنه بالخبر الذي صعقه بفي اليوم الثاني من الزواج عندما علم بوفاة والدته، كان الأمر أشبه بالفاجعة، الكل تخلى عنه وتركه، بل اتهموه وجعلوه سبباً مباشراً لموت أمه بسبب معارضتها على الزواج، وماتت بحسرتها، لم يبق له سوى زوجته، التي أصبحت المرهم الشافي لكل جروحه..

بدأت حياته تتغير بعد لبسه الخاتم، الذي حقق له المعجزات التي لم يتوقع حصولها معه في يوم من الأيام، والأبواب التي فتحت بوجهه وكان يظن يوماً ما أنها لن تفتح، والنحس الجليدي الذي لازمه بدأ يذوب مع كل خطوة في تلك الحياة، والنجاح يلاحقه من مكان إلى آخر، حتى أصبح يملك شركة عملاقة تحقق الأرباح والامتيازات.

وفجأة بدأ مفعول الخاتم يذهب رويداً رويداً، والسحر الذي فيه يضعف، بسبب الخادم الذي أخرج كل قوته ووضعها تحت طاعة الرجل الذي استخدمها بالكامل..

سناء تعلم جيدا أن هناك حلولاً كثيرة من أجل إنقاذ الموقف، كونها مرتبطة معي ارتباطاً قوياً والوكيلة التي تنفذ مطالبنا مع بني البشر، من ربط، وتفريق، هدم البيوت، وتسهيل الأمور، وتقريب القلوب..

ذلك اليوم اكتشف العجوز هذا الكتاب الذي بين يديك، داخل الصندوق في الدولاب الذي وجدت فيه تلك الجنية المحبوسة فيه أول مرة، شده كثيراً بسبب شكله القديم والرسومات التي أحيطت به، المفاجأة التي كانت في انتظاره، هي الجملة الأولى التي وجدها مكتوبة في أول صفحة:

«عادل بن أمينة»؟!

استغرب وجود اسمه، واسم والدته في الكتاب، لماذا هما موجودان فيه، فتح الصفحات الأخرى لم يجد سوى العديد من الجمل والطلاسم التي لم يفهمها..

ذهب إلى زوجته، يريد إيجاد تفسير لذلك الكتاب، ووجود اسمه فيه..

سناء اختصرت كل المسافات وقالت له، أنا من كتبت اسمك، أنت الوكيل القادم

لقزح؟!

رضخ العجوز عادل بسرعة وفهم بل وافق أيضاً، على إتمام الطقوس وتحويله الى ساحر، أنا نفسي لم أفهم ما السر وراء موافقته السريعة، هل هي ثقته الكبيرة بزوجته، أو حبه الكبير للمال والجاه، أو أنه كان يريد المفتاح للدخول إلى عالمنا؟

نفذ كل الذي طلبناه بسرعة قياسية، وصار أحد أهم نائبينا عند البشر، بل أصبح أميراً بشرياً على الجن، فطلبت منه زراعة أشجار السدر التي تراها محيطة بذلك البيت، وتوكيل عدد من الجان لحراسته، وخدمته، نظراً للخدمات الرائعة والجليلة التي ينفذها مع بني جلدته.

حتى جاء ذلك اليوم ليطلب منا ذلك الطلب..

قال لي في تلك الليلة:

- متزوج منذ 15 عاماً، ولم أرزق بالأبناء..

هذا الشيء الوحيد الذي لا نستطيع تنفيذه، هي أمور غيبية موجودة بين السماوات السبع، ونحن الجن لا نستطيع الاقتراب منها، بل هي تتعدى كل طاقاتنا، ونعلم جيداً أننا إذا تعدينا تلك الحدود سنحرق ونموت، لدينا إمكانات نعرفها جيدا، ونريد تطبيقها على بني البشر فقط.

في البداية حاولت إيجاد حل من هنا أو هناك، فوجدت صعوبة، وضعت جميع القدرات التي نملك في خدمته، الأطفال لم تكن رغبة العجوز عادل وحده، بل امتدت الى زوجته سناء التي كانت هي الأخرى تحلم بطفل يملأ عليها البيت..

أنتم البشر لديكم عاطفة كبيرة وجياشة، لا نفهمها نحن معشر الجن..

قال لي ذات يوم، عاونتني بمساعدة العديد من الناس على الإنجاب، فلماذا لا تستطيع مساعدتي الآن؟!

أفهمته أن الأمر يتعدى قدرتي، فهناك خطوط حمراء لا نستطيع تجاوزها..

مرت أكثر من سنة على ذلك الطلب اللعين، وكل الأمور كانت تسير بشكلها الطبيعي..

شعرت بحسرة قزح وألمه وهو يتحدث عن تلك النقطة..

وأكمل قائلا:

- ذات يوم كان هناك العديد من الأطفال يلعبون بالكرة أمام بيت ذلك العجوز، الذي يحرص أشد الحرص على متابعتهم بشغف، حتى انطلقت تلك الكرة داخل الحديقة التي أنت فيها الآن..

جاء ولد صغير لم يتعد السابعة من عمره ووقف أمام البيت، يريد الاستئذان بالدخول من العجوز لكي يأخذ كرته التي سقطت..

أوقفه العجوز قليلاً بعد أن وضع يديه على كتف الولد وسأله، ما اسمك؟ رد الولد الصغير الذي شعر ببعض الارتباك:

حسين..

بعدها انطلق الولد مسرعاً نحو كرته محاولاً تحاشي أسئلته، وقبل الخروج من الحديقة سأله العجوز مرة أخرى: ما اسم أمك؟ قال له الولد الذي ظل صامتا لثوانٍ: سمية..

قاطعته والحيرة والاستغراب يتطايران من جسدي:

- هل تعني أن ذلك الولد هو أنا؟

رد بصوته الخشن:

- بكل تأكيد أنت..

تعلق العجوز بك كثيراً، وظل يراقبك من بعيد وعرف عنك كل شاردة وواردة، ما تحب و ما تكره، ميولك طباعك، لكنه واجه صعوبة كبيرة في التواصل معك.

وقرر الابتعاد عنك حتى لا يؤذيك بعد حبه الكبير لك..

وبسبب طول الأمل وعدم وفائنا بالوعود التي قطعناها له، تقابل مع أحد الأشخاص المتدينين الذي دله على حل المشكلة، ناصحا إياه بالتقرب إلى الله، وذبح الذبائح من أجل تخفيف الذنوب التي كانت حائلا دون حصوله على الأبناء، فكانت المفاجأة التي علم بها الجن الذين يسكنون تلك الأشجار؟

تغير العجوز عادل فجأة كثيراً، وابتعد عن مزاولة السحر معلناً توبته، وأبطل جميع الأسحار التي نفذها للبشر، وأصبح لا يفارق المسجد أبداً، ويقوم بالأعمال الصالحة، ومساعدة الناس، لكنه توقف عند نقطة واحدة لم يستطع تجاوزها أبداً، طلاسم الكتاب المسحور الذي بين يديك، حاول حرقه فوجد صعوبة بالغة، ويعلم بنفس الوقت أن أي محاولة لإتلاف الكتاب من الممكن أن ترجع بنتيجة عكسية عليه، لأن الكتاب يحمل بين طياته أسرارا عظيمة؟

في أحد الأيام حاول إيجاد طريقة للتخلص منه إلى الأبد وفك الارتباط الأبدي، ليجد الحل البسيط بمعاونة زوجته سناء..

هناك طريقة واحدة فقط هي دفن الكتاب، وقام بذلك ودفنه في هذه الحديقة تحت الشجرة التي تقف تحتها، وعند تنفيذ الأمر واجهوا صعوبة كبيرة، كلما دفنوا الكتاب وجدوه في اليوم الآخر بارزاً بجانب الشجرة كأنه لم يدفن أساساً؟

طبعا الحلول كلها مع زوجته التي تعرف كل الخبايا والأسرار..

سناء تعرف جيدا كيف تتعامل مع تلك الألغاز، وانتبهت أن الكتاب لا يدفن إلا بكتابة اسم الوكيل الذي سيخلف الساحر، تكون فيه كل المواصفات المطلوبة..

اكتب اسم أي شخص تجده له القدرة على خلافتك..

ظل العجوز عادل يفكر لثوان، وقام بتدوين اسم الساحر القادم الذي سيصبح الوكيل الجديد، وبعدها دفن الكتاب بالمكان الذي حفرته، ولم يخرج الصندوق

منذ ذلك اليوم من الحفرة، لتمر الأيام، وتحمل زوجة عادل، كنت أتابع الأمور من بعيد، محاولاً تجنب كل الأحداث، ولا أعلم لماذا لم أقم بأي ردة فعل تجاههم؟

هل كنت أحبهم، ولا أريد إيذائهم، كنت أرى الفرح يتطاير من وجه العجوز، وهو ينتظر بشغف مولوده الجديد، حتى أنا نفسي كنت أنتظر..

وقبل أسبوع من قدوم المولود، طلبني العجوز عادل عبر الطلاسم التي يعرفها جيدا، تواجهنا تلك الليلة، وطلب مني عدم التدخل، لأنه لا يريد السير في هذا الدرب، حياته القادمة يريد تكريسها لتربية ابنه والإحساس بالأبوة ناحيته، لم أجاوبه وقتها، بل كنت صامتاً والغضب داخلي يغلي..

قالي لي إنه يريد إيجاد حل ثانٍ للمشكلة، أعلم جيداً العقوبات، كوني تعديت على قوانينكم، وكل ما أطلبه منك عشر سنوات فقط، أريد فقط تربية الولد جيدا، وبعدها سأعود كما تحب، كنت أعلم أنه يراوغ ويحتاج فقط الى الوقت..

وافقت بسبب حبي لذلك الرجل وزوجته، وأعلم أن هذا الأمر سيقلل مني ما بين مردة الجن الباقين، وبنفس الوقت وضعت الحراس من الجن داخل الأشجار، وطلبت منهم عدم الاقتراب أو إيذاء العجوز إلا بأمر مني.

صمت قليلاً لم أسمع إلا أنفاسه تتحشرج، ثم عاد وقال:

- أعتقد أنك تعرف الباقي وماذا حصل، موت ولده على يد أحد أبناء الجنية، الحرب التي قامت، حالة الجنون التي مرت بالعجوز، حبسه لتلك الجنية بذلك الدولاب، كل هذا جعلني أسرع بعقوبتي عليهم وضربهم بتلك اللعنة التي أبطلتَ مفعولها..

صدقني لم تكن العقوبة القاسية، بل كنت رحيماً مع الرجل، حتى يوم دفنه بالمكان الذي تقف بجانبه، كنت أنا من ساعده بذلك، كانت ليلة لا تنسى أبداً وضعتنا في زاوية ضيقة، حتى ذلك اليوم الذي دخلت فيها إلى البيت وإبطالك اللعنات..

رددت عليه بحزن: ليتني لم أدخل هذا المنزل، الذي لا تزال لعناته تطاردني، هي الصدفة من ساعدتني..

امتلأت ضحكته الشريرة بالمكان ثم قال:

- عن أي صدفة تتكلم، كانت كل الأمور تسير بترتيب مني، هل تظن أن الفأس الذي بجانبك كان موجوداً بالأساس، أنا من وضعته وجعلتك تفكر بقطع الشجرة وقتل الجنية..

يا إلهي؟! قلت له:

- هل أنت من فعل ذلك؟

قال بحزم:

- كيف لا أفعل وأنت ساحرنا القادم، نريد إتمام الأمور بسرعة، علما بأن دورك لم يحن إلا بعد انتهاء السنوات العشر، إلا أنك سبقت الأحداث واختصرت السنين..

عمَّ الصمت المكان مجدداً، توقف المطر عن الهطول، لم يتبق إلا تلك القطرات الصغيرة التي تتدلى من أعلى الأغصان..

ثم عاد الى الكلام وقال:

- الآن لم يتبقَ إلا إتمام الخطوة الأخيرة، المرتبطة بنزع روح الخير التي فيك، والشرب من ذلك الكأس الذي داخل الحفرة وقراءة الجملة المعكوسة..

نظرت إلى ذلك القبر، لم أجد الولد الممد داخلها قبل قليل، وكانت هناك كأس نحاسية متوسطة الحجم، أخذتها بهدوء، اعتقدت في البداية أن يكون بداخلها ماء أو شيء آخر، والمفاجأة عندما وضعت إصبعي داخلها ورفعته صبغ الإصبع باللون الأحمر الخثير؟!

عاد صوت قزح وقال:

- انظر إلى جانبك ستجد سكينة، اجرح كف يدك من الداخل، واخلط الدم الخارج منها مع الدماء الموجودة بالكأس ثم ارتشف رشفة..

شعرت بذلك الثقل الكبير يجثم على صدري، أفكر بالقدر، أبحث عن المعاونة قبل إتمام كل الطقوس، أخذت السكينة، وأنا أفكر بكيفية جرح نفسي، يداي ترتعشان من هول الموقف، والهدوء هذه المرة يحيط بالمكان..

وضعت شفرة السكينة الحادة على كفي وغرستها بهدوء، سال الدم من وسطها، وهبط يسيل على يدي..

قال قزح:

- ثلاث قطرات فقط داخل الكأس..

نظرت إلى الكأس، اختلطت كل المبادئ والوجوه بداخله، وجه أبي، وجه أمي، وجوه الناس أصبحت أراها داخله، قربته إلى فمي ببطء، لم أعتد على شراب الدم، فالبشر هم من كانوا يشربون من دمي، لتسقط القطرة الأولى وتسقط معها المبادئ، وانسابت القطرة الثانية تذكرت نظرات الناس وظنونهم التي اصطدمت بنيتي التي التي كانت تتعامل معهم بعفوية، وآخر

قطرة أخرجت ذلك الطفل الذي كان يعيش بداخلي حالاً مكانه إنسان لا أعرفه، سالت قطرات الدم الباقية على جوانب فمي.

قزح يردد:

- الآن افتح الصفحة الثانية من الكتاب، ضع إصبعك بالكأس، ثم ابصم بالدم الذي بإصبعك على الصفحة، هناك جملة آخر الصفحة من سبع كلمات اقرأها معكوسة، وآخر الخطوات هي التميمة السوداء التي معك، بعد الانتهاء ارتديها كالقلادة؟!

بلا شعور دسست إصبعي داخل الكأس، بعد أن فقدت الأمل، واقتربت من الكتاب، ومن ثم فتحت الصفحة الثانية منه، كانت هناك العديد من بصمات الأصابع طبعت كالخطوط على الصفحة بدم جاف، وأعتقد أنها لسحرة سبقوني في المهمة..

شعرت للحظة أن الطقوس ستنتهي وسأتحول الى ساحر كما يريد قزح..

بمجرد قراءة تلك الجملة المعكوسة، سأفقد كل شيء، كل ما بداخلي لا يريد، لكن كل الظروف الآن تحاصرني، حتى الصدفة التي أنتظرها لم تأتِ، أيادي القدر غابت عني في هذه اللحظة الحرجة..

الحل الوحيد هو الهروب، بقيت عيني تراقب البوابة الخارجية من بعيد، أريد إنقاذ نفسي، كم تمنيت ألا آتي الى هذا المكان، كم تمنيت لو لم يكن لدي ضمير حي يريد مساعدة الآخرين، ومن دون مقدمات، أطلقت ساقي للريح، متوجهاً نحو الباب، متوقعاً هجمة مضادة من ذلك الجيش الذي جنده قزح؟

وبينما أنا أركض لم أجد نفسي إلا خارج المنزل الملعون، وقفت للحظة ألهث من شدة التعب بعد الانطلاقة السريعة التي قمت بها، أسير بسرعة محاولاً الابتعاد عن البيت، والتفت خلفي وبنفس الوقت أتقدم إلى الأمام، ومن دون انتباه ونظراً للخوف والارتباك اصطدمت بجسم بشري ضخم وسقطت على الأرض..

وعندما نظرت إلى ذلك الرجل الذي صدمني كنت أتوقعه أحد أتباع ذلك المارد..

ولم أسمع إلا تلك الجملة:

- هل أنت بخير؟

العاشق ذو الجسم الرياضي يقف أمامي..

قلت له:

- هيا نهرب، بقاؤنا هنا أصبح خطرا..

قال لي:

- هل كنت داخل المنزل؟

هززت رأسي مؤكداً جملته..

ثم قال لي بعدما أمسك بيدي:

- هل حللت العقدة، وأبطلت اللعنة..

صمت قليلاً وأنا أحاول التقاط أنفاسي..

ثم أخذ شيئاً كان مرمياً على الأرض..

لا، إنه الكتاب، يا لي من غبي كبير، كيف أخذته معي؟!

وبدأ يتصفحه، ثم قال:

- أعتقد أن هذا الكتاب هو سبب كل تلك المصائب..

وبينما هو يتحدث حتى انخطف الكتاب من بين يدي الشاب، نظر إلي باستغراب يريد تفسيراً لما حدث؟

قلت له:

- جنود قزح قريبون، الكتاب هو من يحمل كل الأسرار، وأنا المقصود..

ثم صمت وعاد يقول:

- لحظة، كما قرأت في وقت سابق كتب السحر لا يبطل مفعولها إلا بالحرق، لا بد من حرق الكتاب..

وقفت وقلت:

- هل تعتقد أن الحرق سيساعدنا على حل المشكلة؟

قال:

- هو الحل للقضاء على كل أنواع السحر، وقبل دقائق كنت أريد حرق هذا البيت بأكمله من أجل القضاء على اللعنة التي حلّت بخلود..

جرني ذلك الشاب وتقدم نحو البيت، وهو يردد:

- لا بد من البحث عن الكتاب وحرقه، لا مجال للانتظار؟!

لم أستطع إيقافه، نظراً للفارق الجسدي الكبير بيني وبينه، وبقيت مجرورا خلفه يسحلني بقوة، كأنني خرقة مبللة، مردداً لا تتسرع كثيرا دعنا نحل الأمور بهدوء، لم يستمع إلى إي كلمة قلتها، وكان مندفعاً بقوة إلى الأمام.

دخلنا البيت، شعرت بذلك الضيق الذي انتابني أول مرة دخلته فيه، وسار ذلك الشاب نحو الحفرة مباشرة؟!

ثم قال:

- انظر، الكتاب موجود بداخل الحفرة..

تقدمت خطوة صغيرة نحو القبر، وأنا ألتفت حولي محاطاً بذلك الخوف الذي رافقني طوال الرحلة، وأترقب ظهور تلك الأشياء، نظرت للحفرة بعد أن مددت رأسي بهدوء، ثوانٍ حتى شعرت بشيء يدفعني إلى داخلها لأسقط فيها، نهضت بعد سقطة مؤلمة، نظرت له من جديد أريد توبيخه على فعلته المتهورة، لكن ما شاهدته كان أكبر مما توقعت، كان الشاب ينظر إلي بعين امتلأت بالاحمرار وابتسامة ماكرة كالتي ارتسمت على وجه تلك الجنية التي كانت تزورني في غرفتي؟

وما هي إلا ثوانٍ حتى ارتفع جسمه بسهولة من على الأرض كأنه يحاول الطيران، ثم قال:

- هل تظن أنك ذكي، أنا المارد قزح ولم يتبق لك سوى قراءة الجملة المعكوسة الموجود بالصفحة الأخيرة..

كيف، هل ذلك الشاب هو قزح، يا له من محتال كبير أتقن دوره ببراعة طوال الفترة الماضية، حوّل نفسه الى عاشق كان طوال الوقت يريد معرفة أحاسيسي، والتقرب مني، وعرف كيف يختار دوره بهدوء، جرني بهدوء إلى ذلك القبر..

جثوت على ركبتي، بعد أن تملكني اليأس ولم أجد مهرباً من هذا كله، ورحت أبكي بصوتٍ عالٍ، فقدت كل الحلول لا مجال للهرب، الأقدار هي الأخرى لم تمد يدها لي وتخلت عني كالباقين، ورحت بدموع حارقة على خدي، أمسكت الكتاب وفتحته على الصفحة الأخيرة اقرأ الجملة بصوت باكٍ متقطع، بينما قزح متصوراً بجسم ذلك الشاب يقف فوقي مردداٍ، الآن ارتدِ التميمة السوداء.

*****

جهاز التحكم عن بُعد يدير تلك القنوات التلفزيونية المملة، وكعادتي لا أعرف عندي أي فضائية أريد التوقف، أنظر إلى الساعة التي بيدي، وأردد بداخلي

هذا البائس دائماَ لا يأتي بالموعد المتفق عليه..

أثناء ذلك يدخل أخي أحمد، ويجلس بجانبي بصمت، لفت انتباهي تصرفه غير المعتاد، فعند دخوله دائما تكون هناك ضجة كبيرة..

قلت له:

- ليست هي العادة؟

التفت إلي وقال:

- أين كنت قبل أسبوع؟

رددت عليه، بعد أن مطيت شفتي:

- بصراحة لا أذكر؟

ظل ينظر لثوانٍ وهو يحدق في عيني وقال:

- زالت اللعنة عن فتيات كلية التربية الأساسية..

قلت له بعد أن تظاهرت بالسعادة:

- أعتقد أن أحدهم قام بقطع الأشجار، المسكين سيُتهم بالجنون.

التفت ناحية يدي اليمني، وقال:

- ما الذي حدث ليدك؟ لماذا هي مضمدة بهذه اللفائف؟

قلت له:

- جرح بسيط لا تهتم كثيرا..

قال مرة أخرى:

- ما الذي حدث يا حسين، منذ أسبوع وأنت تخرج ولا تعود إلا في ساعة متأخرة، ليست عادتك؟

قاطعنا صوت أبي الذي دخل فجأة الصالة وقال:

- ما هذه الأسئلة الكثيرة يا أحمد شقيقك كان يمر بحالة نفسية خلال الفترة الماضية، وهو الآن عاد إلى رشده، ألا ترى الحيوية والنشاط والتفاؤل على محيّاه؟ ألم أقل لك إنه ليس له دخل بالمرض الذي أصابك؟!

قال أحمد والصدمة بعينيه:

كيف ذلك، حسين له دخل كبير برجوعي كما كنت..

مرة أخرى..

يا أحمد، قال أبي..

كل ذلك أوهام كانت تدور بذهن أخيك واليوم هو بأفضل حال، ذهابه معي لذلك الطبيب النفسي حل جميع المشاكل..

بالفعل ذهبت مع أبي إلى طبيب نفسي متظاهراً بالمرض، محاولاً إثبات أن كل ما حدث هو مجرد أوهام حتى لا أشعر الآخرين بالتغير الذي حدث..

ظل أحمد صامتاً، ينظر لي تارة وتارة أخرى ينظر إلى أبي، ووسط الدهشة التي أصابته، وتظاهرت وقتها بعدم الاهتمام، دخلت الخادمة بلهجتها العربية المهجنة، وتؤكد وجود شخص بالخارج يريدني.

الدور القادم على امرأة تريد قراءة الطالع، نظرت إليه بعين حادة تطاير منها الشرر، قائلا له:

- شاهر.. أتمنى الحضور في المواعيد المتفق عليها بيننا.

رد معتذرا:

سيدي متأسف كثيراً، لكن بسبب كثرة الاتصالات من الناس التي تريد تحديد مواعيد معك، والسيدة التي بالخارج تريد أن تقرأ لها الطالع، ابتسمت بخبث مردداً بداخلي ما بال هؤلاء البشر، يريدون معرفة المستقبل وهم يخافون من الحاضر..

ثم قاطعني وقال:

- السيدة أم مها، قامت بإحضار جميع الطلبات وكلها موجودة بهذا الكيس الذي معي.

قلت له:

- تقصد تلك المرأة قبيحة الشكل التي تريد خاتم المحبة..

قال:

- نعم، السيدة الممتلئة.

قلت له:

- هل دفعت المبلغ الذي طلبته منها، لنباشر لها طقوس عقد الخاتم الفيروزي باسمها من أجل ربط من تحب..

جاوبني واضعاً يده بجيبه مخرجا رزمة من النقود الورقية، بالتأكيد..

قبل أن أنسى، الشقة التي نسكن فيها يا شاهر أتمنى تغيير مكانها، وأدخل تلك السيدة التي تريد قراءة طالعها.

وقبل خروجه قال شاهر لي:

- سيدي لا تبرز التميمة السوداء المعلقة على صدرك، أخفِها بين الملابس حتى لا يراها الناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخاتمة

في العتمة.. تختفي أشياء عديدة، تختفي أنفسٌ ربما لم نجدها، تختفي قصصٌ لا يجرؤ أصحابها على البوح بها، ولربما في هذا المكان المظلم نجد أنفسنا الضائعة، التي تاهت وسط كل المشاعر الزائفة.

في العتمة.. نرى ما لا تصدق أعيننا، ومن الممكن أن نعيد في هذا المكان بناء شخصياتنا التي ماتت بسبب عالم لا يعترف بأشخاص تعبت قلوبهم وأرهقت أرواحهم.

لا تخف من العتمة، لأنك من الممكن أن تجد ما لا تتوقعه، ولربما تكتشف نفسك الضائعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء

مقدمة

شجرة التوت

لحظة الخوف

قزح بعد شهر من ليلة شجرة التوت

رسائل نصية

في المنزل

الخاتمة

الفهرس..

Notes

[←1]
غابة أوكيغاهارا، وتعني بحر الأشجار وتقع في اليابان عند سفوح جبل فوجي، والتي مُلئت بكثافة الأشجار والتي لا تكاد من خلالها مشاهدة ضوء القمر أو أشعة الشمس، بسبب كثافة الأغصان والفروع المتداخلة مع بعضها بعضا، ولدى هذه الغابة سمعة غير جيدة من ناحية الرعب، نظراً لكثرة الحكايات عن الأرواح العديدة التي تسكنها، حيث كان اليابانيون القدامى ينهون حياة كبار السن أو المرضى والضعفاء الذين ينبذونهم إلى هذه الغابة من أجل نهاية حياتهم، ومن الغرائب عن هذه الغابة أنها لا يسكنها أي حيوان أو طير.